هل محمد ﷺ

عبقري مصلح أم نبي مرسل؟

التأريخ بمولد الرسول ﷺ
حتمية المستقبل وتأكيد الذات

الدكتور
محمد شيخاني

دار قتيبة

هل محمد ﷺ

عبقريٌّ مصلحٌ أم نبيٌّ مرسلٌ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م
الطبعة الثانية
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص.ب: ١٤/٦٣٦٤ دمشق - ص.ب: ١٣٤١٤

الإهداء

إلى الذي أستقي من ينبوع نَدَواته الفكرية والروحية مادة الحياة والإيمان والذي يشع على وجودي فيض الحكمة وشعلة اليقين. والذي انتقل بين أقطار الأرض انتقال الشروق من أفقٍ إلى أفق بشباب العارف وقوة المتيقن وحكمة المجدّد.

إلى الرائد المخلص أستاذي وشيخي الجليل
سماحة الشيخ الكبير الدكتور

أحمد كفتارو

المُفتي العام للجمهوريّة العربيّة السّوريّة

بسم الله الرحمن الرحيم

التأريخ بمولد الرسول ﷺ
حتمية المستقبل وتأكيد الذات

نفدت الطبعة الأولى وها نحن نقدم للطبعة الثانية بعد عقدين ونيف ؛ ظهر في هذه السنين المديدة كتب كثيرة ، واستحقاقات فكرية وتاريخية رائدة وآمن بمحمد ﷺ أناس كثر وعلى رأسهم روجيه غارودي ومراد هوفمان وموريس بوكاي وآلاف من المفكرين العالميين ، كما ظهر فكر معارض يتسم بالزيغ والضلال وعلى رأسه (الإسلام بدعة نصرانية لإلياس المر ، وقس ونبي لأبي موسى الحريري ، كل هذا دعاني لإعادة طباعة هذا الكتاب ، وجاءت رسائل عدة تطلب نسخة منه ، وفي عجالة من الأمر بدأت ، وفي كتاب (الإسلام بدعة نصرانية) يقول المؤلف : (محمد بن عبد الله عبقري من عباقرة العرب ، سبق غيره ولم يحاذه أحد فيما فعل ، كون للعرب دولة وصلت حدودها لفترة من الزمن إلى حدود الصين ، وقرعت أبواب فرنسا ، هو تاريخ كامل بأحداثه ، بإنجازاته بسيرته ، خلق ثورة دائمة للعالم ، ثورة أطاحت بممالك

وتيجان لم يفكر أحد يوماً أنها ستغيب بمثل ما غابت به) ، ثم يتابع ليثبت بأدلة واهية أن القرآن استقى معلوماته من التوراة والإنجيل والمتتبع لدراسة علوم القرآن يجد أن تحليل القرآن لقصص الأنبياء قد صب في سرد تاريخي للصراع بين الحق والباطل ، بين الأنبياء والطواغيت الذين حاولوا إعاقة سير الأنبياء في طريق واحد باتجاه الوحدانية الخالصة .

وقد فصّل مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية هذه الدراسات ، ووضح الفوارق الكاملة بين أسلوب القرآن وأساليب الكتب المقدسة السابقة .

والمتابع لدراسة كتاب التوراة والإنجيل والقرآن والعلم للدكتور موريس بوكاي يجد التفصيل : (بأن القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد ﷺ من سيد الملائكة جبريل ، وقد كتب في الحال ، ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب ، رددوه أثناء صلواتهم ، وبخاصة طيلة شهر رمضان ، وقد رتب محمد ﷺ آياته في سور ، جمعت مباشرة عقب وفاته وألفت في عهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) الكتاب الذي بين أيدينا وخلافاً لما جرىٰ في الإسلام ، (فإن الوحي المسيحي انبنىٰ على شهادات إنسانية متعددة غير مباشرة . .) .

عبقرية أم نبوة ؟ وأين يقع استحقاق التأريخ ؟ ألعقلٍ مهما بلغ

إبداعه يظل محدوداً ؟ أم لنبوة استكمل مكوناتها الله وهيأهها لأصعب المهمات . واختارها لتكون فوق العقل والذكاء والإبداع والاختراع ؟

ها نحن أمام نمطين ، أمام عالمين عالم العبقرية وعالم النبوة ، لكلٍ سماته وآفاقه ولكلٍ أسسه ومنهجه ، ولكلٍ غاياته وأهدافه .

لنقف طويلاً متأملين في جوهر الأمور وأعراضها ، لندرك الفروق إن كانت هناك فروق ولندرك التشابه إن كان هناك تشابه .

العبقرية مصطلح ينتقل من المعنى القاموسي إلى المعنى الاصطلاحي ويظل يدور في دائرة الأساس فوادي عبقر هو واد تخيله الجاهليون يسكنه الجن ويعوده الكثيرون ليستوحوا من جوّه العلم والإبداع وفن الشعر أو الخطابة أو ما شابههما ، هو استعانة بقوى خفية يتوهم المرء أنها قادرة على التنبؤ والعطاء الغيبي دون حدود .

وينسب الناس كل شاعر فذ إلى العبقرية ، ويُرجعون كل مبدع نبغ في علم من العلوم إلى العبقرية . ويتفلسف بعض الرجال ويطلقون على ألسنتهم الحكم والأمثال فيعيدون حكمته وأمثاله إلى العبقرية .

وينتقل المعنى من سنة إلى أخرىٰ ومن قرن إلى قرن حتى يصبح الناس أقرب إلى إطلاق صفة العبقرية بكل مناسبة ووقت دون

حساب دقيق لما تعنيه أحكامهم السريعة .

صحيح أن العبقري مبدع تعدى حدود بعض البشر في الفكر أو الفلسفة أو القانون ، فأصبح لديهم نادراً مميزاً ارتفع عن المستوى العادي للبشر لينظِّر لهم ويمنحهم الحكمة في أوقات وأوقات .

والعبقرية بكل ما فيها من إبداع وتميّز تظل في نطاق المحدود مهما بلغت مرتبتها ومهما بلغت حكمتها ، قد تجد في زمن واحد عباقرة عظاماً ، ذاك عبقري في الطب والآخر في الفلك والثالث في الفيزياء والرابع في الفلسفة ، قد يلتقي الجميع في عصر واحد ، يقدمون خدماتهم لبني البشرية .

ولكنْ . . أليس مخترع القنبلة الذرية عبقرياً ؟ أليس مخترع القنبلة الجرثومية عبقرياً ؟ هل ينكر أحدنا ذلك ؟ حقيقةً لا يستطيع أي منا الإنكار ، ولكنّ أيّاً منا يستطيع أن يستنكر هذه العبقرية ، ما هذه العبقرية التي تبدع لتفني البشرية وتبيدها ؟ وقد يصل ببعضنا الأمر إلى نفي صفة العبقرية عن هذا المخترع أو ذاك ، وقد يطلق بعضنا عليه صفة الجنون ، وكثيرون يعرفون أن بين العبقرية والجنون فاصلاً صغيراً دقيقاً يكاد كثيرون أن ينسوه فَيَسِمُون العبقري بالجنون ويَسِمُون المجنون بالعبقرية . وما دامت العبقرية في حدود الإبداعات فهي إبداع وضعي قابل للخطأ والصواب . فالعبقري إنسان مهما كبر أو عظم ، يستمد معارفه من تجاربه الحياتية

والفكرية ويطرح أفكاره على ضوء ما عرف واستخلص ، ومهما استمدّ ومهما استخلص فإن تجربته تبقى في نطاق المحدودية البشرية ، ينقطع المدد عنه في لحظة من اللحظات ؛ فيقف عاجزاً عن التواصل وتضمحل أفكاره أو ربما تذوب ليستقبل البشر أفكاراً جديدة لعبقري جديد . ومهما بلغت العبقرية عند إنسان فلن تصل حد الكمال أو التكامل وهذه سنّة الكون وما تعارف عليه البشر طوال وجودهم على الأرض .

قد تكون البشرية بحاجة إلى العباقرة في وقت من الأوقات ، وقد يحتاج شعب مقهور لعبقري عسكري تربوي يؤهل أبناء شعبه لرد الظلم ونيل الحرية فيبتدع الخطط والأفكار التي من شأنها الانتصار على الأعداء لكن هذا العبقري لا يُحتاج إليه عندما ينعم شعبه بالسلام والاستقرار ، وقس على ذلك في جميع جوانب الحياة المتشعبة والمتنوعة .

فالعبقرية تنقصها صفة التواصل بالعطاء والتجدد والصلاحية الدائمة المستمرة .

هنا كان الفرق ومن هنا يمكن لنا أن نصل إلى نقطة المفصل ، إلى نقطة التحول والتوقف وذلك لسبر أعماق المقارنة وتجلياتها .

أين العبقرية في ميزان النبوّة ؟ **وهل محمد عبقري مفكر أو هو نبي مرسل ؟**

هل العبقري أميٌّ لا يعرف الكتابة والقراءة ؟ لا نريد أن نجيب عن هذا السؤال لأنه يحتمل الإيجاب والنفي .

هل العبقري يعلم الغيب ويستطيع أن يتنبأ دون احتمالات في الخطأ ؟

لقد بات لنا واضحاً أن العبقري له من السمات والصفات والعطاءات ما ليس لغيره من كثير من أبناء البشر ولكننا لا نستطيع أن نقول إن ماله ليس لغيره من البشر كافّة .

ولو رحنا ننظر بعين الحق دون تحيز إلى عالم النبوة لوجدنا الأمر يختلف كل الاختلاف فمحمد ﷺ ليس عبقرياً لأن ما أوردناه من سمات وصفات لا تنطبق على شخصيته ومسيرة حياته . هكذا قبل كل شيء وله أسباب كثيرة نراها معاً على طريق التوضيح . محمد ﷺ رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة ، معارف عصره قليلة بل ضحلة . القراء والكتاب يكادون أن يكونوا نادرين . عقائد قومه خليط من الوثنية والنصرانية واليهودية أميٌّ لكنه يأمر قومه بالعلم وبالمعروف وينهاهم عن المنكر والجهل ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . كيف يأمرهم بالعلم ؟ أليس الأمر أمراً ربانياً كما نراه في القرآن الكريم ؟ يقول تعالىٰ : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ، لقد نفى القرآن الكريم عن نبيه الأكرم تلاوة أي كتاب قبل

نزول الوحي وكتابة أي صحيفة عنه ، أوليس من القواعد الدارجة بين العباقرة وأئمة الفكر والأدب أن النكرة في سياق النفي تفيد انتفاء الحكم عن كل أفرادها وتعطي شمول السلب ؟ ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ﴾ لقد وضح الله سبحانه صفات هذه النبوة التي تفترق عن صفات العبقري كما عهدناها أو عهدتها الشعوب . . محمد رسول نبي أمي مكتوب اسمه في التوراة والإنجيل ومنعوت فيهما بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث يضع عنهم الإصر ويرفع عنهم الأغلال ، وقد ورد ذلك في سورة الأعراف في الآية ١٥٧ .

هذه هي إحدى سمات النبوة وليست سمات العبقرية . ألا ترى معي أن هذه الصفات خاصة وخاصة جداً ، فأي عبقري تنطبق عليه هذه الصفات ؟ لعمري إن ذلك محال .

ولو نظرنا إلى ما صرح به القرآن عن الغيب لوجدنا أن الرسول محمد ﷺ قد تلقى من الله سبحانه ذلك العلم . أخبر الرسول الكريم بالقرآن العظيم أن الروم بعد أن غُلبوا سيغلبون ، ووقع ما قاله القرآن بأقل من عشر سنين ، فغلب الروم ودخل جيشهم مملكة الفرس بإجماع من أهل التاريخ . وكثيرة هي الأمور الغيبية التي أوحى بها الله لنبيه وعلمه إياها ، كعصمة الله له من القتل ، وإخباره في سورتي التوبة والحشر عما سيؤول إليه أمر المنافقين .

ثم لو توقفنا قليلاً عند القرآن الكريم الذي بلّغه رسول الله ﷺ للمسلمين لوجدنا المعجزة تلف عقولنا وقلوبنا ووجداننا ووعينا.

لقد قلنا إن العبقري قد يأتي بالحكم والإبداع ولكن قد يأتي عصر يرى في هذه الحكم تراثاً لا يصلح لحاضرهم ، أما النبوة التي سندها الله وقوّى حجتها بالقرآن فقد كانت أمراً آخر مختلفاً .

صحيح أن النبي محمد ﷺ كانت لديه الاستعدادات الروحية والعقلية والنفسية لتلقّي أمر النبوة غير أنه لم يأت بالقرآن من عنده ، إنما أوحى الله سبحانه بالقرآن لهذا النبي .

ولو كان القرآن من صنع عقله لكان ما صنعه يخضع لقانون الأمور الوضعية القابلة للتغيّر من عصر إلى عصر . فالقرآن الكريم الذي نزل على قلب محمد منذ أكثر من ألف وأربعمائه سنة ما زال يمدّ الفكر ويتحداه ويدفعه لمزيد من البحث ولا تفتر معانيه وأحكامه ، ونرى أن هذا القرآن يتجدد في كل لحظة في عقول العلماء ونفوس الناس ووعيهم .

وبالموازنة بين ماأنزل على محمد من آيات القرآن وبين ماأتى به العباقرة نجد الفروق واضحة جليّة بل إن بعضنا يجدها من البدهيات والمسلّمات ، فما يأتي به هؤلاء العباقرة والحكماء غير قابلة للخلود مهما بلغ نضج العقل فيه ، ومهما بلغت درجة الإبداع عنده ، بينما نرى القرآن العظيم خالداً ما بقيت الحياة ولو لم يكن

كذلك لرأينا التغيير يلفه ، لكن الله سبحانه تكفل في حفظه وصونه وما يتكفل به الخالق ليس كما يتكفل به مخلوق محدود العقل والوجدان محدود الجسم والوعي .

لقد أتى القرآن الكريم على ذكر الماضي السحيق ولم تحفل الكتب ولا المؤلفات جميعها بما حفل به القرآن من ذكر ذلك الماضي . وأتى بالحديث عن المستقبل ، وما كان لعبقري أن ينبئ بمستقبل يطابق التنبؤ تمام المطابقة ، ولا حتى يطابق جزءاً منها .

إن محمداً لم يكن عبقرياً كما صوره بعض فلاسفة الغرب أو بعض مفكريهم ولو كان عبقرياً لصلح ما أتى به لزمنه ، أو إذا تجاوزنا ذلك قلنا صلح ما أتى به لزمنين أو ثلاثة ولكنه قد لا يصلح لعصر آخر كعصرنا الذي بلغ عقل الإنسان فيه مبلغاً كبيراً في تصوراته وإبداعاته .

إنما محمد نبي أتته رسالة من السماء خالدة باقية محفوظة ، وما في هذه الرسالة صالح لكل زمان ومكان . لقد مات جسد محمد وبقي عطاؤه حياً ورسالته حيّة تتجدد دوماً ، وحينما نرى في النبوة غير ما نراه في العبقرية ؛ فإننا إثباتاً للحق لا يمكن لنا إلا العودة نحو الوراء لنرى أن نبوة محمد ارتبطت بظروف محلية وأخرى عالمية وبسلوكية فردية ومدد رباني وجهاد متواصل في سبيل نشر الدعوة وتبليغ الرسالة .

إن ما يمكن أن نراه من عصر عالمي رافق بعثة هذا النبي ليدل بشكل قاطع على أن العالم كان ينتظر . فالمسيحية شُوِّهت وربطها المتنصِّرون بأغراض سياسية بعيدة عن روح العقيدة المسيحية الحقة . لقد باتت المسيحية كالفسيفساء المذهبية التي لا يلتقي فيها لون مع لون ولا مشرب مع مشرب .

أما الفرس فقد بلغت بهم الأمور مبلغ الفساد الشامل . فأفكار تدعو إلى الإباحية وعقائد تختلط فيها عبادة الملوك والنيران والقوى الشريرة الغيبية ، وتنتشر الصراعات السياسية والقومية حتى بات القتل والاغتيالات أمراً يومياً في أنحاء الإمبراطورية الفارسية كافة .

أما أوروبا وما هي أوروبا ؟ ليس لشعوبها ذكر ولا لنورها وجود ، ظلمة دامسة ، تخلف ما بعده تخلف ، إمارات وممالك على عدد المدن والقلاع والقرى .

هذا هو العالم السائد عندما شعَّ نور النبوَّة المحمدية من شبه الجزيرة العربية . أليس هذا العالم المتخبط بحاجة لمبعث جديد يعم خيرُه العالَم ؟ وهل كان باستطاعة أي عبقري أن يفعل مثل ما فعلت بعثة النبي محمد المؤيدة بالقرآن الكريم ؟

أما الجزيرة العربية . فهي قبائل متناحرة لا تحلل ولا تحرم بل تقلب الحلال حراماً والحرامَ حلالاً ، وكم من أفراد وقبائل وقعت في الظلم الفاحش ، فأفراد يستعبدون أفراداً وقبائل تستعبد غيرها ،

وغزو ومطاردة وقهر وإراقة دماء دونما سبب سوى سبب الظلم والاستعباد والجهل والتخلف . وفي غمرة هذا التخبط العالمي بحث الظامئون عن الحلول ومكثوا ينتظرون الآتي الذي يحسُّون أنهم بحاجة إليه . وظن بعضهم أن ذواتهم هي المؤهلة لاختيار السماء لكن السماء لا يدرك أسرارها أحد . كان الاختيار سابقاً لتصوّر البشر ، لقد كُتب في العلم الإلهي الأزلي ولا مبدل لإرادة الله الذي اختار محمداً ليكون نبي هذا الزمان وآخر الرسل والأنبياء وخاتمهم .

وتبدأ حياة هذا الإنسان ، طفولة شريفة وشباب متّزن ونشاط ما بعده نشاط . لا أوثان في ذهنه أو نفسه بل توجه للنقاء الروحي الذي أراده الله . ويتقدم الزمن فإذا به زوج لسيدة فاضلة تنجب له بنات هنَّ قرَّة عينه . . يتميز في مجتمعه بالصدق والأمانة والرجولة والشهامة . وما عُرف عنه غير ذلك . عرف الفصاحة منذ صغره وغرز البلاغة والبيان في رجولته فأبهر الناس بحسن لغته وخطابه وعقليته .

كل ذلك كان ليكون ، ولا أحد يدري ماذا ستؤول إليه هذه الشخصية المميزة الفريدة في مجتمعها . ويتلقى الرسالة ليبدأ مسيرة الأنبياء ، مسيرة العذاب والمواجهة والصبر على الشدائد حتى يأذن الله له بأن يهاجر ليبني أول لبنة في دولة الإسلام حيث انتشر التوحيد

لأنه الحق ، ولم تمض سنوات حتى انتصر الحق وعمَّ ودانت العقول الجاهلة للعقل والمنطق ، للعلم والتقدم ، للإخاء والإنسانية والمحبة والعدل والمساواة ، لهداية الناس والشعوب والأمم قاصيها ودانيها ، هذه هي النبوة ؛ شخصية متَّزِنَة منذ ولادة صاحبها . عاقلة مفكرة مميِّزة بين الخير والشر . هذا هو الاستعداد لتلقي رسالة السماء وكيف لا ؟ فإن التكامل في هذه الشخصية لا بد له من القدر الإلهي ، لا بد له من الرسالة ، لقاء السماء بالأرض ، آيات من الله لتكون دستوراً أبدياً متجدداً وشخصية مميزة بكل ما يعني التميّز من معنى ، تلتقي الشخصية بما لديها من ملكات بما تنزله السماء فتحدث المعجزة ؛ معجزة الله في شخص هذا النبي العظيم .

هنا تصغر العبقريات بل تضمحل لأن النبوة أولا وأخيراً فعل رباني وليس بشرياً وضعياً ، وهنا أيضاً تتوقف عقولنا لتسأل أين تقع استحقاقات التأريخ ؟ ألعبقري أم لنبي ؟

حقيقةً ليس لعاقل اختيار ، لأن المنطق العقلي يرى أن هذا النبي هو فوق العبقرية ومن حق التأريخ أن يبدأ به ومن حقه أن يبدأ بالتأريخ .

عظمة النبوة تستلزم التنبه الخاص جداً ، وهذا التنبه يعني تحديداً أن يبدأ تاريخنا كمسلمين به ، لقد أرخت شعوب كثيرة

لعباقرتها منطلقة من التعصب الوطني أو القومي ، وهذا من حقها لأن ذلك يعني انتماءها لوطن أو لقومية لها ملامحها ، وإنسانية لها شموليتها .

وإن كنا ندعو إلى التأريخ بمولد الرسول الإنساني محمد ﷺ فإننا لا ننطلق من هوى قومي أو وطني ، إنما الذي يفرض نفسه كون رسالة الإسلام رسالة إنسانية شاملة تخص كثيراً من القوميات والشعوب وكثيراً من بقاع الأرض المترامية الأطراف ، والتأريخ بمولده يعني تأصيل وجودنا في قلب قوميتنا أولاً ، وإنسانيتنا ثانياً .

إننا معنيون أكثر من غيرنا بالتأريخ بمولد محمد الرسول ﷺ لأن الصلة التي تربطنا به هي أقوى الصِّلات وأمتنها . . إنها صلة العقيدة والرّجوع إلى النبع القرآني الإلّهي الواحد ، ولولا هذا النبي لتشوّهت قيمنا وتشوّه انتسابنا ، وأصبحت شخصيتنا بلا ملامح . ولعل نظرتنا إلى مستقبل يعيد أمجاد أمتنا الإسلامية وعزّتها يستند كلياً إلى مبعث النور الإسلامي الذي أراده الله أن يكون على يدي خاتم الرّسل والأنبياء ، فلم لا نؤرخ بمولد هذا النبي الذي أُرسل ليصنع أمة جديدة بروحها ، بماديتها ، ليصنع تاريخاً جديداً ويرسخ دعائمه بالدّين القويم ؟

أليست تلك استحقاقات التاريخ ؟ التاريخ الذي نرى فيه شخصيتنا وأمتنا ، نرى فيه وجودنا وتواجدنا على أرض عربية إسلامية ؟

نعتقد أن كل أمة تمتلك إرادتها وتصوراتها ، ولكل أمة حقها في تأريخ حياتها ، ومن حق أمتنا الإسلامية أن تفتح للعالم تأريخاً يبدأ بمولد محمد بن عبد الله الذي تجاوز كثيراً العباقرة والمفكرين والمبدعين ، تجاوزهم لأن في شخصه اكتملت رسالة السماء ورسالة الأرض ؛ فكان الإسلام العظيم في كل ملامحه وتطلعاته المستقبلية .

المدخل إلى البحث

إن مدنية الغرب التي زهت بجمالها العلمي في أيامنا الحاضرة ، والتي وصلت بها إلى القمر ، وأخضعت العالم بنتائج هذا العلم بدوله وأممه ، تعلن إفلاسها الآن وبدأت تندحر وتندك أصولها وتنهدم نظمها وقواعدها . فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات ، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات . ويشهد ضدها ملايين البائسين من العاطلين والمحتاجين . وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان وهذا القلق صار صفة ملازمة للشباب ، والاضطراب حالة نفسية عامة لهم ، فالفراغ النفسي شردهم ، والعمل بلا غاية ولا هدف هدر قدراتهم ، وها هي المؤتمرات تعقد لحل مشكلات الشباب في كل مكان وإننا لنسمع التصريحات السياسية والاجتماعية دون جدوى وقد حار القوم والحكماء خاصة في علاج مشكلاتهم وضلوا السبيل . مؤتمراتهم تفشل ، ومعاهداتهم تخرق ، ومواثيقهم تمزق ، وعصبة أممهم شبح لا روح فيه ولا نفوذ لها ، ويد العظيم فيهم توقِّع مع الغير ميثاق السلام والطمأنينة وتلطم

بالثانية من ناحية أخرى أقسى اللطمات ، وهكذا صار العالم اليوم بفضل هذه الأصول والسياسات الجائرة الطامعة كسفينة في وسط اليم حار ربانها وهبت عليها العواصف من كل مكان ، الإنسانية كلها معذبة شقية قلقة مضطربة ، قد اكتوت بنيران المطامع والمادة ، وتأججت فيها روح الإباحية المهدمة للقيم والمثل العليا . . .

ولقد كانت قيادة الدنيا في وقت ما شرقية بحتة ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية ثم بعد ذلك نقلت إلى الشرق مرة أخرى ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ونهض الغرب نهضته الحديثة فكانت القيادة العالمية له وورث تراث العالم واستفاد منه وسماه باسمه . .

وهاهو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم يبق إِلا أن تمتد يد من هذا الشرق العريق بأمجاده ، لتعيد الحق إلى نصابه . وهي في أشد الحاجة إِلى عذب من سؤر الوحي الإلهي ليغسل عنها أوضار الشقاء ، ويأخذ بها إلى شاطئ السلام كما كان في المرحلة الأولى من مراحل حضارة أمتنا . . . التي كانت مظللة بوحي الله ، وتخفق على هاماتها راية القرآن يحدوها جند القرآن بإيمانهم وسلوكهم وثباتهم على الحق . . .

لم يكن هذا خيالاً بل واقعاً عشنا في ظلاله ومازالت أمتنا العربية

والإسلامية تتغنى بأمجاده التليدة وإن حكم التاريخ الصادق ليشهد لنا . . . وما هو جوابنا اليوم ؟؟ . . إن الجواب لهذه العاصفة الهوجاء التي تهب على أمن العالم واستقراره كائن في وحي الله . . . وواقع العالم اليوم لا يختلف عما كان عليه في غابر الزمان عندما وصلت الإنسانية إلى ذروة الضياع والفساد ، وإذ بالوحي يهبط وتتصل السماء بالأرض لتدل الحيارى التائهين . . وبالفعل دلتهم السبيل القويم ، وهدتهم الصراط المستقيم فشيدوا حضارة وبنوا مدنية ، ورفعوا للحق راية وسطروا للقيم مجتمعاً تنعكس من خلاله المثل جلية متكاملة . هذا الوحي قد ترك للإنسانية ما يبعثها إذا رقدت ، وما يحرك نوازع الخير واليقظة فيها إذا كبت وركعت للضياع مرة أخرى . وإننا لنشاهد كبوة العالم ورقاد الإنسانية وانحرافها وحيفها وانحلالها ولا باعث للإنسانية من كبوتها الأخلاقية إلا وحي السماء ولا محرك لجذوة التصحيح إلا حبل مدلى من الذات العليا فلنعتصم به إذا أردنا بلوغ المقصد ، ولنشيد عرى مجتمعنا بأطنابه ليرفع كابوس الرقاد والإباحية والهوان عن أمتنا . . .

وعلينا إن أنعمنا النظر في العالم أن نلتفت إلى الحكماء والفلاسفة فهذا المؤرخ الفيلسوف الكبير أرنولد توينبي يقول في كتابه (الحضارة في الميزان) : لقد حاول كارل ماركس أن يوجد الدولة في أعلى قيمها عن طريق نظرياته المعتمدة على المادية

التاريخية فما استطاع ذلك . وحاول قبله هيجل رائد الفلسفة المثالية خلق الدولة المثالية في عالم الواقع بنظرياته المثالية فما أمكنه تحقيق ذلك . وفكر آدم سميث بإيجاد الدولة الفضلى بنظرياته الاقتصادية الحرة فما حقق ما أراد وما بلغ مقصده ولكن محمد بن عبد الله ذلك العربي استطاع إيجاد الدولة في أعلى قيمها وأشمل مثالياتها الواقعية لأنه اعتمد على عنصري الإنسانية وهما المادة والروح فنجح حين أخفق غيره وما أحوج العالم إلى تكامل المادة والروح في عالم الواقع ! ولا بأس إذا أصخنا السمع وأنعمنا النظر في أحرف رددها برناردشو حين قال : ما أحوج العالم إلى رجل كمحمد ليحل قضايا العالم وهو يشرب فنجاناً من القهوة . بعد هذا كله . . . فلنسأل أنفسنا وبصراحة . . . هل محمد رسول ؟؟

هل يوجد وحي إِلهي ؟ . .

ما هي حاجة الإنسانية إِلى الوحي ؟

ما هي الأدلة العقلية للبرهان على نبوة محمد ؟

أيحق لنا عقلاً أن نصدق كل من ادعى النبوة ؟

ما هي مميزات النبوة الصادقة من النبوة الكاذبة ؟

ما هو دور الوحي في المجتمع وما أثره في الحضارة ؟

لنكن صرحاء مع أنفسنا . . مع المثقفين . . مع التاريخ والإنسانية . . وهذه أسئلة ترد بعد سؤال ناقشه الفلاسفة منذ أرسطو

مروراً بالإنسانية وانتهاء بآخر إنسان يعيش على وجه هذه البسيطة ، وذلك السؤال قد أجيب عنه بكتاب صدر وهو (هل الله موجود) وإِن نظرة واقعية للصراع الفكري العقائدي لتدعونا إِلى بحث هذه المعضلة ولا عجب أن يطرحها الفكر في عصرنا لنجد لها الدليل العلمي الواضح مع العمل على إثارة المناقشة حول المواضيع المرتبة حسب أهميتها ، لما في التسلسل من نتائج جيدة فبحث الإيمان بالله ضروري لإنسان يريد مناقشة الإيمان بالنبوة ، ولذا كان هو المنطلق الأول لهذا البحث . . فجاء هذا المخطوط المتواضع رديفاً للبحث الأول ومكملاً له وإِن الخوض في هذا البحث الشيق ليدعوني إلى بعض التفصيل فالباب الأول يشمل الفصول التالية :

١ ـ العالم قبل بعثة محمد .

٢ ـ الجزيرة العربية قبل البعثة .

٣ ـ لمحات عابرة من سيرته .

٤ ـ هل نحتاج إِلى الوحي ؟

والباب الثاني ويشتمل مجموعة من الأدلة العقلية والشواهد الحضارية والعلمية على نبوة محمد بن عبد الله . . وسوف يتم كل ذلك بفكر موضوعي بعيد عن العاطفة الدينية ، مرتكزاً على المقدمات المنطقية التي يعتمد عليها كل إنسان يبحث عن الحقيقة الأبدية ، ولا شك أنه يوجد في الإنسانية راغبون في الحق ، ديدنهم

المنطق السديد وهم الذين سنلتقي معهم في نهاية الدروب الوعرة .

وأما الذين ملكت العصبية الفكرية قلوبهم ، وأعمتهم التقاليد التي عاشوا مترفين في ظلالها فأسدلت الغشاوة على عقولهم فأبوا إلا ما هم عليه مرددين يضاهؤون[1] من كان قبلهم ﴿ إِنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾

فأولئك ليسوا طلاب حقيقة ولا يملكون كوة البحث والمناقشة وما أكثر هؤلاء الذين يقرؤون ولا تفيدهم القراءة إِلا إِمعاناً في قديمهم لخور في إرادتهم وجمود في عقولهم . .

أخي القارئ :

جرد عقلك من أوضار القديم المستجد في نفوس التائهين وحرر فكرك من آثار البيئة الملوثة بالإباحية ، وانطلق في هذا البحث لغاية المناقشة الحرة التي توصل إِلى الصواب فإن بلغت الغاية التي بلغت بها في نهاية المطاف فقد التقينا في البداية والنهاية وإِلا استمر كل منا في منحاه وتابع مسيرته حسب تقاليده الممسكة لتلافيف دماغه لا يريد حقاً ولا يبحث عنه وأرجو لك المتعة والقبول في هذه المناقشة الحرة .

---

(١) يقلدون .

الباب الأول
الفصل الأول
العالم قبل البعثة

عالم يتداعى يشارف منتهى أجله ، ويسرف في متاهات الضياع ، لقد بلغت البشرية فيه الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض . فالحضارة قد جمدت روح الحياة في عروقها ، ولا عجب فقد بلغ العقل البشري منتهى عجزه في حل أزمة الإنسانية الممزقة . . .

بيزنطة

انتشرت فيها مسيحية مشوبة بأغراض سياسية ، وقد شاخت بعد شباب وبدأ مجدها ينزوي رويداً رويداً ، وتعددت مذاهبها ، وانقسم كلّ مذهب إِلى فرقة وحزب وتنكرت كل فرقة لغيرها ، واضطرمت نيران العداوة فيما بينها .

دب الخلاف ، واستشرى الضعف الخلقي والذهني ، مما أدى

إلى الولوع بالجدل العقيم حتى قال أحد رهبان الكنيسة يصف أحوال بعض المدن البيزنطية :

« كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل ، ترى ذلك في الأسواق ، وعند باعة الملابس ، وصيارفة النقود ، وباعة الأطعمة ، فأنت تريد أن تبدل قطعة من ذهب فإذا بك في جدل عما خلق وعما لم يخلق . وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : الأب أعظم من الابن ، والابن خاضع له . وأنت تسأل عن حمامك ، وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم »[1] .

وعقدت المؤتمرات اللاهوتية للبت في هذه المسائل الجدلية العقيمة الكثيرة فلم يكن بإمكانها الوصول إلى كشف غوامضها . واستمرت تذر اللب وتأخذ القشور . فصار الجدل علماً عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمي بجوارها .

ولم يكن أتباع النصرانية على استقرار في عقيدتهم ، ولا على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، واستحكمت الأهواء ، واشتد القذف بينهم بالمروق والكفر والضلالة ، وذلك للخلاف حول المسيح وأمه . .

---

(١) الرسول / محمد حسين هيكل .

وحول الأقانيم الثلاثة ونشأت الفرق الكثيرة وتباعدت الأقوال بينها فالأريوسية تقترب من التوحيد والنسطورية تقارب من الطبيعة الإلهية . . ومما زاد الأمر تعقيداً اشتداد البلبلة السياسية ومنازعات العروش والقتال المستحدث بين الطوائف . . فلا هدوء ، ولا استقرار ، ولا سلام ، ولا أمان من السياسة ولا من رجالها ولا من الدين الذي غير المنحى الذي وجد عليه ولا من رهبانه ولا أمن من الأخلاق في ذلك الواقع المتخلف الممزق . . .

لقد ران على الأفئدة ظلام إِثر ظلام وطويت العقول في غياهب السواد المشتت ، شرك يشوبه توحيد يزعم أنه يحارب شركاً محضاً ؟! حتى كان من بين الطوائف المسيحية في تلك الفترة من ينكرون أن لعيسى جسداً يزيد على طيف يتبدى به للناس .

الفرس

قد سخر المجوس من عقيدتهم ، وكمنت حول أحابيلها كوامن الغيلة واضطرمت فيها الفتنة ، وتحكمت الأهواء ، وصارت قدرة فعالة ، وغاض فيها ماء الوفاء ، وبلغ الضياع منتهاه . لقد انتشرت فيها أفكار (مزدك) داعية الإباحية والفوضى في الأموال والأعراض وأخذ يغالي في الثنوية ، ويؤكدها في النفوس معتمداً على الهرطقات والنزعات الروحية الملتوية ، وقد استطاع إقناع قباذ (والد كسرى أنو شروان) ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس

صدقه في إيمانه ، وتقيدوا به في ترك الأعراض ، ليجعلوا نساءهم مباحات وكل هذا يستمر في ظل العقيدة المجوسية التي تجمع الأرواح والشياطين ، وتقارب بين الظلام والنور وهذا يدل على الدرجة التي وصل إليها العقل البشري من الانحطاط والضعف والجمود . . .

عالم يعيش على شريعة الغاب ويتخبط في عقابيل الظلام ، قتال دائر بين الشرق والغرب ؛ والإنسانية آنذاك تمر في خط منكسر تتقلب على جمر الفرقة والظلم والفقر والجهل لا قيمة للإنسان ، ولا مكانة إِلا لحاكم قوي ، ولقد صور أحد الفنانين منظراً يمثل واقع الإنسانية . مثلها بصورة كئيبة سوداء ، كسفت فيها شمس الحياة والسعادة ، وعلت عليها سيوف مقطرة بدماء الأبرياء ، لقد اكتوت النفوس بالجاهلية ، المميتة ، وخيمت على الدنيا ظلال الاستغلال والضياع وبذا تكون الإنسانية قد بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة من الجهل والانحلال والأباطيل ، وعبدت الجمادات والنيران والحيوانات ، وقدست الملائكة والجن والشياطين ، وخضع الناس لأرواح الموتى ومظاهر الطبيعة بخنوع وذل .

عالم خلاصة ما يقال فيه ينتظر المصلح . . . وينتظر شيئاً خفياً . . .

وقد وصف الشاعر العالم آنذاك قائلاً :

فعـــاهـــل الـــروم يطغـــى فـــي رعيتـــه
وعـاهـل الفـرس مـن كبـر أصـم عمـي

أوربا

كانت في غياهب النسيان ، تمرح في محاربة القبائل المهاجرة من الشرق ، وتضطرب في الدفاع عن مدنها الصغيرة الشبيهة بالمدن التي ليس لها ذكر في القرن العشرين وأجمل ما يقال عنها في ذلك اليوم أنها قارة موجودة في الكرة الأرضية بحقيقتها مفقودة بروحها ومشاركتها للصراع بين الروم والفرس آنذاك وهذا يدل على مدى الانحطاط العام الذي كان يكتنفها . . .

الفصل الثاني

الجزيرة العربية قبل البعثة

عاشت الجزيرة العربية حياة يحيط بها الغموض من الناحية الاجتماعية ونستطيع القول بأن الجزيرة مرت في فترة ركود لا تعرف للنظام معنى ، ولم يسمح التاريخ بوحدتها واقعياً إلا عندما انبثقت من أصل واحد ، حروب دائرة ضروس ، نهب وسلب ، إباحية واغتصاب حتى وصلت في القرن الخامس الميلادي إلى ذروتها وما نقله ابن قتيبة : بأن زرارة قد تزوج ابنته وأن لقيطاً ابنه تزوج ابنته دختنوس أيضاً ومات عنها وهي حليلة له .

وارتكبت الفواحش باسم الوثنية وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . وعبدت الأصنام والأوثان والأنصاب والتماثيل والأشجار والكثبان . . . فكان إيمانهم بالله مشوباً مضطرباً لا وضوح فيه ولا استقامة . واتخذوا الأوثان لتقربهم إلى الله زلفى وكانت أحكامهم في أكثر شؤونهم قائمة على الظن

والتخمين لا على الحق واليقين وآمنوا بالفأل والطيرة والكهانة والعرافة وكان لهم فوق ذلك خرافات عجيبة وخزعبلات تدل على ضعف في الفكر وركود في المعرفة .

يحرمون ويحللون دون قيم ولا حكمة ولا مرجع إلا التقاليد المتوارثة عن أجدادهم ولم يعرفوا لها مصدراً إلا الآباء والأجداد .

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾

وأما نظام حياتهم فكان قائماً على ظلم القوي للضعيف وتحكم القادر في العاجز ، واعتمدوا على القوة وحدها في انتزاع الحق . سمتهم الواضحة الأخذ بالثأر وحب الانتقام وما حادثة داحس والغبراء وما آلت من نتائج على القبائل المشتركة فيها بغريبة التي استمرت ما يزيد عن أربعين سنة وقدرت النفوس التي أريقت دماؤها بما يزيد عن مائة وأربعين ألفاً من صناديد العرب وتلك الحرب الثانية التي عرفت بحرب البسوس هي المعركة التي جرت من أجل ناقة وقتل من أجلها الألوف . . .

كل هذا كان في الأمة العربية قبل النهضة الجديدة . . . وأما في الحضر فكانت تجري الدماء بين الأوس والخزرج ، يشعلها اليهود ويوقد حقدها التعصب القبلي الأعمى . . . وهذه الحروب جميعاً تدل دلالة بينة على روح العصر والهمجية الواقعية بين البدو والحضر وفي كل أرجاء الجزيرة آنذاك ؛ كل هذا كان في الجزيرة العربية دون

أن تخضع للرومان أو الفرس على الرغم من المطامع التوسعية لديهما وكان رجال الدين يبذلون وينشرون العقيدة في هذه الجزيرة ولكن دون جدوى ، وظلت كأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلا في أطرافها ، آمنة من انتشار الدعوات الدينية إلا في قليل من قبائلها ، وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة .

وقد كان للعرب في عبادة الأوثان أفانين شتى يصعب على المؤرخين الإحاطة بها لأنه كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة بل كان أكثرهم يتخذ صنماً أو نصباً خاصاً له في بيته يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر ، وهذه الأصنام جميعاً سواء أكانت في الأماكن العامة أو في الأماكن الخاصة ، فإنها تُعـدُّ الوسيط بين عُبادِّه وبين الإله الأكبر . ولذلك كان العرب يُعدُّون عبادتهم لها زلفى يتقربون بها إلى الله وإن كانوا قد نسوا عبادة الله لعبادتهم هذه الأصنام .

أما حياتهم الاجتماعية فمن مظاهرها الظلم وخاصة للمرأة فهي في نظرهم نوع من المتاع فلم يكن لها نصيب من الميراث ، بل كانت هي نفسها تورث مع التركة وكان للوارث منها مطلق التصرف . فإن شاء تزوجها ، وإن شاء زوجها من غيره ، ولم يكن للزواج عندهم حدود ولا للطلاق قيود ، فللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، وله أن يطلق المرأة متى شاء ويراجعها متى شاء ، فلا هي زوج لها ما للزوجة من حقوق ، ولا هي مطلقة تملك أمرها

وحريتها . . . إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال . وبعض الجواري كن يرغمن على كسب المال بأعراضهن إرضاء لسادتهن .

وكانت الأنثى على العموم مجلبة للحزن ، ومظنة العار ، فكان العربي يحزن أشد الحزن إذا ولدت له أنثى ، وبعضهم كان يئد البنات مخافة العار والفقر ، وكان الاتفاق يجري عند عقد القران أحياناً على قتل السلالة من البنات .

وكان الربا والخمر والميسر من ضرورات حياتهم ، وكان السكر والعربدة وانتهاك الأعراض من المفاخر التي يتغنّون بها في أشعارهم ومجالسهم ، وكانت اللذة والمتاع أسمى ما تصبو إليه نفوسهم ، همهم الطعام والشراب وانتهاب اللذات قبل أن يدركهم الموت . على الرغم من كل هذا كان في العرب فضائل عنصرية ، وطباع كريمة ، وسجايا ذات وزن كبير في مقياس الرقي الإنساني ، من ذكاء ونبل وشجاعة ووفاء وصدق وكرم إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة المشهورة في الأمة العربية . ولكن لم تكن كل مزاياها المعروفة لتمنع قيام حياة جاهلية صماء وخاصة في عقليتها ودينها وعاداتها لأن تلك المواهب العنصرية والسجايا الحميدة التي وصفت بها لا خير فيها إذا لم توجه توجيهاً تربوياً صالحاً ، ولم تسخر لها الأيدي الطيبة لتستخرج منها ينبوعاً للفضائل العملية وبذا

كانت الأمة العربية أشبه بالأرض الطيبة التي أهملت زراعتها فنبتت فيها الحشائش والنباتات الضارة ويمكن القول بأن تلك الفضائل كانت فردية آنية مدفوعة لم تستثمر في حينها . فأنتجت لنا نبات الحقد والعصبية والنهب والسلب ولم تخرج أزاهير الوفاء والقوة والوحدة والانطلاق . ومن قبيل التكامل في الضياع نجد أن المسيحية واليهودية قد انحرفت آنذاك عن أصولها فهاهم أولاء أهل الدين من اليهود والنصارى لا يقلون في فسادهم عن الوثنيين فهناك شوب من الشرك يشوب عقائدهم ، وكثير من السيئات تدنس أعمالهم .

﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ !! بل ﴿ إِن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ .

فهذا الجهل الذي أفسد دينهم وزلزل عقائدهم ، وهذه الخرافة التي سيطرت على عقولهم وقلوبهم ؛ وهذه الفوضى التي سادت نظمهم وتقاليدهم ، وهذه البهيمية التي صبغت حياتهم وهذه العداوة التي مزقت وحدتهم وتلك الحروب التي أنهكت قواهم ، وتلك الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء هي التي جعلت نفراً من

حكمائهم يفكرون في أمر دينهم ، ويتساءلون فيما بينهم ، أهذه الأوثان آلهة تنفع أو تضر ، أهذه هي الحياة المثلى التي تليق بالإنسان ؟ أخلق الإنسان ليأكل ويشرب ويقضي حاجياته وشهواته وكفى ؟ وما الفرق إِذن بينه وبين الحيوان الأعجم ؟ . .

وجعلوا يتلفتون إِلى ما حولهم لينظروا أي دين هو أهدى إِلى الصواب ، وأقرب إِلى الحق ، أهو دين النصارى ؟ أم دين اليهود ؟ أم دين المجوس ؟ . .

أما المجوس فهم والعرب سواء في ضياعهم وضلالهم وأما اليهود والنصارى فقد غيروا وبدلوا وتفرقوا واختلفوا .

﴿ وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ .

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . . وسارعوا كما يسارع غيرهم في الإثم والعدوان وافتراء الكذب . . . إِذن فليس اليهود والنصارى على شيء فأين الدين الحق الذي يصل بالإنسان إِلى مدارك الكمال ؟ . .

كانت هذه الحيرة تشغل بال المفكرين من حكماء العرب وعقلائهم ، فداروا يبحثون عن عقيدة تشفي غليل نفوسهم ، وتروي ظمأهم الروحي والأخلاقي والاجتماعي . وذكر ابن إسحق أن قريشاً اجتمعت يوماً في عيد لهم ، عند صنم من أصنامهم كانوا

يعظمونه ، وينحرون له ويطوفون به ، فخلص منهم أربعة نفر يتناجون ، وهم ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل فقال بعضهم لبعض : اعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم . . ! ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . . ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . . ! فتفرقوا في البلدان يلتمسون لأنفسهم الدين الحق .

هكذا كانت حالة العرب ، وهكذا كانت حالة العالم كله ، دنيا تلفظ أنفاسها الأخيرة . . أمم اتخذت الذئب راعياً والرذيلة مذهباً إلا قلة قد بعدت عن الانغماس في الإباحية وما أجلها لو حملت لواء الحق آنذاك لتنشره بين الإنسانية التي تمر في فترة الطفولة . . .

فعالم يتطلع إلى المصلح وأمة عربية تتطلع إلى المصلح وإنسانية تتطلع إلى المصلح .

* * *

الفصل الثالث

لمحات عابرة

من سيرة محمد بن عبد الله ﷺ

ولد محمد ﷺ في مكة في عام ٥٧١م من والد ينتسب إلى أسرة عريقة في مكة[١] يسمى عبد الله وأمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب كبير قومه وسيدهم ، ومن الموافقات الجميلة أن يلهم عبد المطلب تسمية حفيده محمداً ، وإنها تسمية أعين عليها ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام ، لذلك سألوه : لم رغبت عن أسماء آبائه وأجداده ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء ، وأن يحمده الخلق في الأرض فكانت هذه استشفافاً للغيب ، فإنه لا يوجد في الإنسانية من يستحق ازجاء الشكر والثناء كما يستحق ذلك المحمّد لما أسدى للإنسانية من خير عميم . مات والده وكان

---

(١) نور اليقين ص٨ .

في بطن أمه ، لم ير الحياة بعد ، ومن ثم ماتت أمه وهو في السنة السادسة من عمره ، وعاش في كنف جده محاطاً بحنانه وبره . ولكنه لم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده بعد أن أوصى به عمه أبا طالب ، فحزن محمد لموت جده حزنه لفقد أمه واستمر في بكائه حتى شيع جده إلى مقره الأخير[١] ترك له والده خمسة من الإبل وقطيعاً من الغنم وجارية هي أم أيمن حاضنته بعد موت أمه ويمكننا القول بأنه عاش عيشة اضطرته أن يعمل ليسد رمقه ، ولا شك أن العمل لطفل في سنه وبيئته المكية هو الرعي . وامتد به العمر حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فسافر مع عمه في تجارة إلى الشام ولا يهمنا ما حدث له من لقاءات سريعة خاطفة ، وبدأ يظهر اسم محمد في عدة أمور منها :

١ ـ حرب الفجار : اشترك فيها اشتراكاً فعلياً فمن المؤرخين من قال بأنه عمل على جمع السهام ، ومنهم من قال بأنه اشترك برمي النبال ولا شك أنه عمل بالاثنين معاً لأن الحرب استمرت أربعة أعوام متتالية[٢] .

٢ ـ حضر محمد حلف الفضول وكان ينص هذا الحلف على حماية المظلوم حتى يؤدى إليه حقه وكان يقول فيه (لقد شهدت في

---

(١) الحقبة المثالية .
(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول ص١١١ .

دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت) .

واستمرت حياته على شاكلة تختلف عن غيرهما من الشباب الذين يعاصرونه ، ونشأ نشأة غريبة بين قومه ، إِذ لم تغمره البيئة بتقاليدها ، ولم تطغ عليه العشيرة بعاداتها وطباعها ، فما عرف عنه في أيام طفولته الأولى أنه قلد القائمين على أمره في تقديس اللات والعزى ، وما ورث الهيبة التي كانت لهبل في نفوس قريش ، وعرف عنه أنه رفض أكل ما ذبح على النصب كما رفض عبادتها وتقديسها ، واستمر نظيفاً طاهراً في روحه واعتقاده ، لم يلوث بدنه كما لم تتلوث عقيدته . . النقية الطاهرة . ولم تحمله صولة للشباب ، ولا ميعة الصبا على معاقرة الخمر ، ومنادمة الرفاق في مجالس اللهو التي كانت منتشرة إِذ ذاك في نواحي مكة بين أوساطها المختلفة بل إن اللهو البريء لم يتخذ طريقة إلى محمد ـ والسر في ذلك أن دور الشباب عنده اقترن بمرحلة التفكير والحيرة التي كانت مخيمة على العصر الذي وجد فيه ، فكان كلما همَّ بمداولة اللهو والمتاع ـ كما يصنع أقرانه ـ داهمته أفكار وتأملات ملأت كل جوانب نفسه ، وشغلت قلبه ، وبدا له البيت العتيق ، وقد تكدست في ساحة الحرم ثلاثمائة وستون صنماً جلبت من أنحاء بلاد العرب . وتحظى كلها بالتقديس والعبادة . . . وهكذا يجري الصراع بين الواقع الأليم وبين صفاء فكره . . . وعاش في دوامة من

الفكر . . ولم يجد حلاً على الرغم من طول التفكير وعمقه ، وكان كلما قلب الأمر ازداد حيرة وقلقاً . . . .

ومما زاد من حيرته حياته المستمرة مع الطبيعة واشتد صراعه مع الحقائق ، ولكن لم يجد الجواب الشافي لاستقرار النفس ، فكان يظهر في حيرة مشغلة له دائماً . . .

هذه صفاته الخاصة التي تتجلى من نظرته وحياته . . .

وأما مع بني قومه فكان أفضل قومه مروءة ، وأكملهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم عن الفحش ، وأعظمهم حلماً ، وأكثرهم أمانة ، حتى كان يلقب فيما بينهم بالأمين ، يودعون عنده ودائعهم ، ويحتكمون إليه فيما حل بينهم ، ومنها حادثة تجديد بناء الكعبة التي تثبت مكانته وحكمته ومنزلته عندهم ، فعندما أرادت قريش تجديد بناء الكعبة بعد إصابتها بالسيل وتصدع جوانبها . . . اشترك في ذلك رجالهم ونساؤهم فكان محمد يزامل عمه العباس في نقل الحجارة . . . فلما بلغوا موضع الركن ـ وهو الحجر الأسود ـ أرادوا أن يضعوه في مكانه فاختلفوا : أيهم ينال هذا الشرف العظيم ؟ . . وكان للحجر الأسود في نفوسهم منزلة من الإجلال والتقديس لا تدانيها منزلة ، واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يتحاربوا لولا أن رجلاً حازماً منهم دعاهم إلى أن يحكّموا بينهم في هذا الأمر ، أول من يدخل

عليهم من باب المسجد ، فارتضوا ذلك الرأي واتفقوا عليه ، ووقفوا ينظرون أول داخلٍ عليهم من ذلك الباب ، فكان محمد بن عبد الله ففرحوا به جميعاً واستراحوا لرؤيته ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه !!

وكان قد عرف بينهم بسداد الرأي ، وصواب الحكم ، فقصوا عليه قصتهم وأخبروه بما كان من أمرهم ، فقال « هلموا إِليَّ ثوباً » فجاءوا بالثوب ، فأخذ الثوب فبسطه على الأرض ، ثم أخذ الحجر فوضعه في وسط الثوب ، ثم قال « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فوضعه بيده في مكانه ثم بنى عليه » .

تجارته لخديجة وزواجه منها :

وكان يرعى الغنم في أودية مكة قانعاً بنصيبه من هذا العمل على قلته ومشقته إلى أن بلغ خمسة وعشرين عاماً ، فحاول عمه أبو طالب أن يوجد له رزقاً أكثر من رعي الغنم ، فقال له : يا ابن أخي قد اشتد الزمان علينا ، وألحت سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون بمالها ، فلو جئتها فضلتك على غيرك ، فقال محمد : لعلها ترسل إِلي في ذلك ؟ ولكن خديجة بلغها ما دار بين محمد وأبي طالب من محاورة فأرسلت إليه ، وجعلت له ما كانت قدرته لغيره لما بلغها من صدق حديثه ،

وعظم أمانته وكرم أخلاقه[1] وهكذا سافر في تجارتها وأرسلت معه غلامها وربح لها الكثير واستطاع بجميل أخلاقه ونبل عواطفه أن يحمل ميسرة على حبه واحترامه وبالتالي نقل كل ذلك إلى خديجة ، وارتفعت منزلته عندها ، وفعل كل ذلك في قلبها ما فعل من حب وإعجاب بالإضافة إلى ما اشتهر به من صفات الأمانة والصدق والوفاء والمروءة والشهامة . وازداد إعجابها بكل ما سمعت عن هذه الرحلة حتى اختلج قلبها في حبه ، وفكرت بالزواج منه على الرغم من رفضها لكل سيد من قريش تقدم للزواج منها ، لأنها كانت تحب الفضائل فوجدت في محمد صورة ماثلة للكمال ، ونموذجاً حياً للفضيلة في كل ما يأتي وما يدع .

وعملت لإرضائه بالزواج حتى قبل وهو مغتبط ، قرير العين ، وتم أمر الزواج ، بحضور عم خديجة عمرو بن أسد وبعض أعمام محمد بزعامة أبي طالب الذي خطب في هذه المناسبة خطبته المشهورة وهي :

الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه ثم . . إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به ، ولا يقاس به إلا عظم عنه ،

---

(١) الفتح الإسلامي للشيخ فخر الدين ص٢٥ .

وإِن كان في المال قل ، فإن المال رزق حائل ، وظل زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك[1] .

واستمر في حياة زوجية هادئة مع شريكة حياته ، في ظل من التفاهم والتعاون المتكامل .

حياته قبل بعثته :

عاش حياة فيها القلق الفكري والنفسي ، فالفكر أخذ منه كل مأخذ ، يفكر ملياً عندما رأى الحياة في اضطرابها ، والعبادات الوثنية التي لم يقبل بها يوماً من الأيام . فقد ازدادت سفهاً في نظره ، وقارب محمد بن عبد الله الأربعين من عمره ، وهو على إطراقه العميق وتفكيره المتواصل في صمت يلفت النظر ، فأحب الابتعاد عن ضوضاء الحياة ومشاغلها فالتجأ إلى الغار ليخفف من جلبة الحياة حوله ، ويلتمس في الخلوة والتفرغ الحقيقة المنشودة في خلده ، ويبحث في عمق عن الحق والهدى . . .

وتعلقت روحه فيما وراء المادة ، فتجلت على القلب بوادر المعرفة ، ومنها الرؤية الصادقة فصار ما يرى رؤيا إِلا جاءت كفلق الصبح ، وبدأ يزداد بغضاً لما عليه قومه وتزداد عوامل الشك والحيرة في أمر إنقاذهم من الضلال الذي استعصى على الهداة

---

(١) سيرة ابن هشام .

علاجه ، فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر مصيبة ! وهذه هبل واللات والعزى . . . وكل هذه لم تخلق شيئاً . . . فكان يسأل نفسه أين الحق إذن ؟ . . . أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه وسمواته ونجومه ؟ أهو في الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء . . . لا ، فما هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور إلا أفلاك كالأرض سواء بسواء . . . إذن هل وجدت هذه العوامل مصادفة. . . الجواب لا . . .[1] لقد كان يفكر ويتأمل وينشد المعرفة ، لاستلهام الحقيقة الأبدية واتجه بعد كل هذه الفترة من الحياة الحائرة إلى الله بصفاء السريرة ونقاء الروح وتهيؤ الفكر ، اتجه إلى الله بشكل قوي بعد الكثير من الرؤى الصادقة التي توالت عليه . . . اتجه بكل روحه إلى اعتزال قومه بعد أن ضربوا في تيهاء الضلال ، فصار يقوم الليل مرهف الذهن والقلب ، ويطيل الصوم ، وتزداد التأملات ويعيش في اشراقات وومضات عميقة في خلوة روحية . . .

وازدادت رؤاه حتى خشي على نفسه من شدة التفكير . . . وبلغ الفكر أوجه ، والروح نضجت وسمت حتى بلغت مرحلة التحمل

---

(١) الجواب : يوجد في كتاب هل الله موجود ، وكتاب العلم يدعو للإيمان ، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم .

للعبء الثقيل إنه حمل الرسالة الكبرى .

وكانت تلك الليلة الليلاء فاتحة عهد جديد ، وبدء مرحلة حاسمة في تاريخ الإنسانية كافة ، تغير بها وجه التاريخ ، وتطورت حياة العرب تطوراً عجيباً ، واتجهت البشرية في عقائدها وعباداتها وأخلاقها نحو الحقيقة المنشودة عند كل حكيم عاقل . . . فجاءه جبريل وهو في الغار وحيداً فقال محمد عن نفسه :

فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . . . قلت : ما أقرأ ! فغتني[1] حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . . . قلت : ما أقرأ ! قال : فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ : . . قلت ما أقرأ ! قال : فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم » قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً . . . وقال : فخرجت ، حتى إذا كنت في وسط الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) .

وبدأت بعد ذلك دعوته ، وأنزل عليه القرآن وآمن به الكثير

---

(١) كذا في الأصول والطبري والغت : حبس النفس .

وكفر به الكثير وبعد هذه اللمحة الخاطفة من حياته علينا أن نناقش فكرة الوحي على ضوء المنطق السليم والفكر المتكامل . ومن ثم نناقش بأدلة علمية منطقية صدق الرسالة والرسول لنجيب عن السؤال : هل محمد رسول ؟؟

الفصل الرابع

الوحي وماهيته ، وهل نحتاج إليه؟

إن الإنسان الذي وصل بعد بحث عقلي عميق إلى الإيمان بالله عز وجل ، يجد مشكلة ثانية تتوقفه بإثارة أسئلة عدة . . . والكثير من العلماء المفكرين المنصفين في مجتمعات العالم اليوم قد برهنوا للبشرية وبمنطق سليم عن عمق إيمانهم بخالق الكون وعلى سبيل المثال رئيس أكاديمية العلوم في الولايات المتحدة الدكتور كريسي مريسون وأستاذ السوربون ورئيس قسم العلوم الفيزيائية الدكتور ليكونت دي نوي ، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم الذي كتب فيه ثمانية وعشرون من علماء العالم بأدلة علمية ليدل دلالة واضحة لمن يريد الحق على عمق الإيمان وكثرة أدلته . . .

وعلى الذين بلغوا هذه المرحلة أن يتمموها بسؤالهم الثاني : ما هو الوحي ؟ وما دور النبي ؟ وهل نحن بحاجة إليه ؟ وماذا يزيد الوحي على العقل ؟ وهل الإيمان بالوحي متمم للإيمان بالله ؟

ماهية الوحي

المعنى اللغوي : (الوحي يطلق في اللغة على مطلق الإعلام ، غير مقيد ذلك الإعلام بأحد معين يلقيه ولا بمستقبل معين يلقى عليه . كما أنه غير مقيد ذلك الإعلام بطريق معين من طرق المعرفة . كالرمز أوالتعريض أو الإلهام أو الكتابة أو الكتاب أو الكلام)[١] .

المعنى الشرعي : (هو إعلام الله إلى أنبيائه) فلا يكون مصدره إلا من الله ولا يتلقاه إلا نبي لرب العالمين فهو متميز إرسالاً واستقبالاً وله صفته الخاصة . وضرورته أنه يستحيل أن يتقبل الإنسان فكرة وجود الخالق المدبر الحكيم دون أن تترافق مع الإيمان برعاية الخالق لخلقه وتدبيره المستمر للكون ، فإذا أيقنت بوجود الله ، فمن البدهي أن تؤمن بأن الإله سيرسل للبشرية ما يدلها إلى طريق سعادتها ومسلك عدالتها ودروب الحق لتتخذها دروباً لها ، لأنه ليس من الضروري أن يكون كل ما في العقل كافياً لتخطيط نمط الحياة المثلى . بل وجد الوحي ليواكب العقل . وما خالفت الرسالات السماوية الصحيحة التي لم يعترها التزوير الحقائق التي أثبتها العقل السليم المعتمد على تفكير علمي

---

(١) ابن حجر في فتح الباري ج١ ص٩ .

منظم . . . بالإضافة إلى أن لكل من العقل والوحي ميدانه الخاص في كثير من المسائل . فإذا استطعنا بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق الكون والحياة ، فإننا لا نستطيع بغير الوحي أن نتوصل إلى حقائق ما وراء الطبيعة التي أصبحت حقيقة لا مراء فيها فالعلم بذات الله وصفاته ، والطرق الموصلة لرضائه ، وطاعته وامتثال أوامره وكل ما يتعلق بعالم الغيب لا يعرف إلا عن طريق الوحي .

وإن الوحي ما هو إلا ري لما في النفوس من ظمأ محرق للوصول إلى الحق ، وقد أضاء الوحي للجذوة الكمينة المقدسة في أغوار النفس دروب الحياة الصحيحة لتصل إلى الحق الكامل بأسهل طريق دون أن يتحطم العقل في كثرة افتراضاته دون جدوى . وما كان الوحي إلا رحمة إلهية ، يشير إلى العقل التائه ، هذا الطريق الحق ، فانظر في بدايته واسلك دربه ودل الحيارى عليه وعرفهم كنه الحقيقة بل ملكهم الحقيقة كلها . . . وإياك أن تبتعد عني ، فابتعادك عني ضياع ومثلك كمثل رجل في فلاة ضلَّ عن مرشده ظاناً نفسه قبل ذلك أنه بامكانه النجاة من المفازة وإذ به يجد نفسه يصل حيث بدأ وينتهي حيث انطلق . . .

وما كان الأنبياء إلا عقولاً مفكرة حكيمة باحثه عن الحق ، ليرشدوا الناس إلى كل مكرمة وفضيلة تسمو بهم وتعرج بمجتمعهم

نحو العدالة المطلقة والمساواة والإنسانية .

ولولا الوحي المتتابع بدءاً بآدم وانتهاء بمحمد لبقينا في عهد سفه ، وعهد ليس لليله صبح وما أرسل الأنبياء إلا ليلقي الله إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا ، كي يبلغوها للناس ، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ، ومعرفة أسرارها وسننها بعد أجيال وقرون ، ويظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهي مع ذلك حقائق يقينية تهدي قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها على حين تظل قلوب عليها أقفالها ، جاهلة بها ، لغفلتها عنها . وعلينا أن نناقش البحث عن طريق المنطق العلمي المحض فالعلم الحديث قد أوجد في جامعات العالم اختصاصاً كاملا اسمه (علم الروح) وهذه جامعات أكسفورد وكمبردج وجامعة في الولايات المتحدة تبحث الروح بشكل علمي وتحاول الوصول إلى نقاط غامضة فربما تصل ولربما تحتاج إلى قدرات لا تملكها البشرية وهذه صحيفة الأهرام بتاريخ أول مارس سنة ١٩٦٣ تكتب ما يلي :

إن عالماً روسياً من لينغراد كتب يقول (لقد اقترب الوقت الذي يستطيع العلم فيه الوصول إلى أسرار الروح كما وصل من قبل إلى أسرار الجسم عن طريق التشريح) ولا يهمنا الشطط في مناقشة هؤلاء على إمكانهم معرفة الروح أم لا . . . . ولكن هذا اعتراف

علمي بوجود عالم الروح . . . وما الوحي إلا امتداد لعالم الروح . . . وهنا علي أن أنبه الأذهان إلى أن عالم الروح ليست مكاناً كالكواكب والنجوم وإنما هو عالم أثيري قد يراه شخص معين ولا يراه شخص آخر . ذلك لأن الأول لديه القدرة الروحية التي تمكنه من رؤيته والثاني ليس لديه تلك القدرة والأنبياء هم أصحاب القدرات الروحية والفكرية العالية . . .

ظاهرة الوحي عند محمد :

وإن دراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها الوحي لمحمد بن عبد الله لتدل على أمر غير عادي وإنها لظاهرة عجيبة وكانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين يلتقي بالوحي وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه ، فكانوا يرونه قد احمر وجهه فجأة وأخذته البرحاء حتى يتفصد جبينه عرقاً ، ويثقل جسمه ، وكانوا مع ذلك يسمعون من حوله أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل ثم لا يلبث أن تسري عنه تلك الشدة فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً محدثاً .

فلننظر في هذه الظاهرة : هل كانت شيئاً متكلفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والروية ، أو كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار ؟ واذا كانت أمراً غير اختياري فهل كان لها في داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباعثة النوم ، أو من

الأسباب الطبيعية الشاذة كاختلال القوى العصبية أو كانت انفعالاً بسبب خارجي منفصل عن قوى النفس ؟[١]

وإن نظرة واحدة نلقيها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلفة التي كانت تسمع من حوله وأيضاً لو كانت صناعة وتكلفاً ، لكانت طوع يمينه ، فلو شاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد لجاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره . مع أنه كثيراً ما التمسه في أشد أوقات الحاجة إليه كحادثة الإفك التي أقلقته شهراً كاملاً وسؤال قريش واليهود . . . فكان لا يظفر بالوحي إلا حين يشاء الله . فهي إذن حال غير اختيارية . ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم ، فإنها كانت تعتريه قائماً أو قاعداً سائراً أو راكباً ، بكرة أو عشياً ، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه وكانت تعتريه فجأة وتزول عنه فجأة ، وتنقضي في لحظات يسيرة ، لا بالتدريج الذي يعرض للإنسان ، وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم . وبالإجمال كانت ظاهرة تباين حال النائم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها ، وجملة مظاهرها . فهي إذن عارض غير عادي .

---

(١) الوحي الهي : الحسين عبد المجيد هاشم .

ثم لنرى المباينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر لها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان ، وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ويخيم ظلام الجهل ، بينما نرى في ظاهرة الوحي مبعث نمو في قوة البدن وإشراقة في اللون ، وارتفاعاً في درجة الحرارة ، وكانت بالإضافة إلى ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته ، وتتضاءل الأنوار عند طلعته . ها نحن أولاء قد كدنا أن نضع النقاط على الحروف . . . فلنقف وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الوحي الذي كان يبدو حينا لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ويختفي أحياناً من حيث لا يد لصاحبه في ظهوره ولا في اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمدية ؟ اذاً لو كان مصدراً داخلياً لكان خليقاً أن ينبعث منها أبداً ، ولكان أحق أن ينبعث منها في حال اليقظة العادية والرؤية الفكرية أكثر مما ينبعث منها في تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة المفاجئةالتي تشبه السنة أو الإغماء ، ولا بد أن يكون وراء هذه المفاجـأة التي تعتري محمداً عليه الصلاة والسلام مصدر نوراني يمد هذه النفس بين آن وآن ، فيسمو بها عند أفق شعورها المحدود ، ويزودها بما شاء من العلوم ، وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستفاداً من ذاته ، وإنما هو مستفاد من ضياء الشمس

لأنهم يرون اختلاف نوره تابعاً لاختلاف مواقعه منها قرباً أو بعداً ، فكذلك فليؤمن الباحث عن الحقيقة بأن نور الوحي الساطع في هذه الدنيا إنما يكون شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الحقيقة النورانية الأبدية التي يرى الناس آثارها وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعة في رابعة النهار ، ولم يسمعوا صوتاً بآذانهم جَرْساً مفهوماً وكلاماً يفقهه الناس ، ولكنهم كانوا يرون قبساً منها في الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم وإن في ذلك لهدى للمهتدين .

هي إذن قوة خارجية ، لأنها لا تصل بهذه النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين وهي لا محالة قوة عالمة ، لأنها توحي إليه علماً . وهي قوة أعلى من قوته لأنها تحدث في نفسه وبدنه هذه الآثار العظيمة ﴿ علَّمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ﴾ . وهي قوة خيرة معصومة لأنها لا توحي إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد ، فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة من خيال شارد . . . فأنى للوحي هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم ؟ فأما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عن الوحي ، وإن لم يره ، لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما المتكبرون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر المعارف فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علماً فإنهم سيكذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون : لعله اضطراب في أعصاب البصر خيل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء وقل ﴿ ما زاغ البصر

وما طغى ﴾ ولعلهم يقولون لعله اضطراب في قوى الفكر ، صور له المعاني أشباحاً ماثلة ، والأحلام حقائق مجسمة ، فيرد عليهم ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ نعم لقد عجب كفار قريش ومن بعدهم أن يكون إنسان كمحمد يرى الملائكة عياناً ويكلمهم جهاراً ، بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونهم بأعينهم ، وصوت لا يسمعونه بآذانهم ، فقالوا كيف يرى محمد ما لا نرى ويسمع ما لا نسمع ولعمري لأعجب من هؤلاء أشد العجب بذاك ، لأن العصر الحديث قد فسر لعقولنا أموراً أكثر إعجاباً . . . وأقرب هذه الأشياء الهاتف (التلفون) فقد أصبح الرجلان ، يكون أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب ثم يتخاطبان ويتراءيان ، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً ، ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوي النحل الذي يشبه صفة التخاطب من نوع ـ الوحي ـ والتلفاز الذي ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك فهذا أشبه بفكرة الوحي وبقربها للأذهان المادية التي لا تؤمن بالروح وسموها .

وأعجوبة التنويم المغناطيسي الذي يمكن الرجل القوي الإرادة على من هو أضعف منه بقوة إرادته حتى يجعله ينام نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر ، وهناك يكون رهن إشارته وتنمحي إرادته فلو شاء أن يمحو من نفسه رأياً أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة . بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه هو

اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً . ولأصبح اسمه الحقيقي نسياً منسياً ، ولبقي هذا الاسم الجديد منقوشاً على قلبه ولسانه حتى بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله ، فإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان ، فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

فذلك مثل حامل الوحي ومتلقيه : هذا بشر مطواع ذو روح صافية يقبل انطباع العلوم فيه ، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه الرسالة ويلقنه إياها فلا ينسى إلا ما شاء الله .

ويقول العالم الفيزيائي الكبير ليكونت دي نوي رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في السوربون :

إن المعتقدين بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الإلهي والملحدين ، لا يبدو عليهم القلق أمام الحقيقة بأن الكون الحي المنظم يغدو غير مفهوم دون قبول فرضية وجود الله . فهم يؤمنون ببعض العناصر الفيزيائية التي لا يعرفون عنها سوى القليل مع أنها تحتوي على جميع دلائل الإيمان غير المعقول ، ولكنهم لا يعرفون ذلك وبعضهم غدا مستعبداً لمجموعة من الكلمات الساذجة التي لا معنى لها .

وفي الحقيقة لقد أصاب في مقارنته العلمية التي بين فيها الأسباب غير العلمية التي يتبناها بعض الملحدين لرفض فكرة الوحي ، ويتصور الكثير بأنهم لا يمكن لأحد حملهم على الإيمان

بالوحي لأنهم عاجزون عن إدراكه ، ولكن أستطيع أن أقول بأن الإنسان العاقل الذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج إلى رؤية الوحي ، مجسداً بملك إلا كما يحتاج الفيزيائي رؤية الألكترون وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة لا قيمة لها ، فالألكترون لا يمكن إدراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة الحديد المشاهدة . وكذلك الوحي يعرف بآثاره الحضارية والفكرية والاجتماعية .

ما هو دور الموحى إليه :

لم تكن مهمة الأنبياء الموحى إليهم تبليغ شرائع الله فحسب بل كانت مهمتهم بالإضافة إلى ذلك أن يكونوا أمثلة عملية مجسدة للشرائع ، وأن يكونوا قدوة للناس في حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق ولذا جعل الله الرسل والأنبياء بشراً لا ملائكة فيهم من الغرائز والمواهب ما في سائر الناس ولكنهم كانوا حكماء في استخدامها ، فلم يقتلوا غرائزهم ولم يميتوها بل نظموها وضبطوا مسيرتها في سير حثيث نحو الكمال الروحي والجسدي ، ومن هؤلاء الأنبياء محمد بن عبد الله الشخصية التاريخية الوحيدة التي وضحت كل معالمها ، والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها ، فهو الموحى إليه ، والوحيد الذي يمكن أن يكون الشخصية الكاملة بكل يقين لأن سيرته واضحة المعالم منذ يفاعته حتى وقفت نبضة الحياة في جسده .

وفي تتمة البحث سنعثر على المناقشة لصحة الوحي بالنسبة لمحمد ﷺ وصدق مشاركة القوى الخفية في إيجاد معجزة محمد العقلية . . . لأنه كان لكل موحى إليه معجزة حسية تلائم العصر والنضج الفكري لتلك الأمة التي يبعث لها ذلك الرسول . . . ولربما كان في تلك المعجزات إكراه حسي للإيمان فأما في معجزة محمد عليه الصلاة والسلام فلانعثر على هذا وإنما نقاش عقلي ومعجزة فكرية هي معجزته الكبرى التي تحدى بها العرب وكل أعداء عقيدته .

ولا بد من الإشارة في خاتمة بحث دور الوحي من القول بأن الوحي كان سبيلاً للتشريع يضمن للجماعة النظام الأمثل وتكوين الأمة بعناصر تميزها بخصائص حضارية ، ومبادىء إنسانية ، يشهد لها التاريخ ، وتبقى أمثولة خالدة وعلى سبيل المثال الأمة العربية وحاضرها وماضيها ومستقبلها . . .

فعندما تركت الوحي وما أوحي فيه خلدت إلى ما كانت عليه في ماضيها من تمزق واستغلال وضعف وأنانية وعندما عاشت مستضيئة بظلال الوحي رفعت لها في الحق رايات ، وبنت حضارتها متربعة في مشارق الأرض ومغاربها ، وكبدت الباطل وأعوانه العار ، وحمت الحق وأهله وألبستهم لباس الأمن والطمأنينة والعدالة والسعادة .

وحي « محمد » ﷺ والأنبياء :

إن الوحي لم يكن شيئاً جديداً على محمد عليه الصلاة والسلام بل كان قديماً قدم الرسل والأنبياء ولذا يقول ر.ف. بولي في كتابه (الرسول) يخص المعارضين لنبوة محمد من المسيحين واليهود ويتعجب منهم ، لعدم إيمانهم بالوحي المنزل على محمد على الرغم من تصديقهم للوحي المنزل على موسى وعيسى . . . فيقول :

« فعلى الساخرين من محمد في غار حراء أن يسخروا من موسى أيضاً وهو على طور سيناء ، ومن عيسى على تلال الجليل . . .

ولقد قصوا نبأ تلك الأشياء في بساطة وحسن نية ، وإن هذا لينطبق على محمد بن عبد الله والملك جبريل » .

وهذا منطق سديد ، وموازنة علمية دقيقة ، وقانون عام ينطبق على كل رسول ، فلمَ نفرق . . . ؟؟

ويمكننا القول بأن فكرة الوحي قد ولدت مع ولادة الرسالة الأولى ثم بدأت الرسالات تواكب بعضها بعضاً وكل رسالة تؤيد سابقتها وتؤمن بها وتنفي الزيغ الذي دخل بمرور الزمن من قبل البشر لتعود العقيدة لصفائها وجوهرها الناصع . ونجد أن اليهودية كانت المنطلق الأول لفكرة الرسالة الإلهية بشريعة وكتاب ثم جاءت

النصرانية رديفاً ومتمماً ومصححاً للأوضاع التي آلت إليهاالبشرية من جراء البعد بين حقيقة اليهودية في أصالتها واليهودية في واقعها . . .

ثم جاء الإسلام يدعو للإيمان بالأنبياء ويصحح أخطاء أتباعهم ويعود بالعقيدة إلى صفائها دون شوائب فصدع بالتوحيد وأكد عليه ونظم الشريعة الكاملة للإنسان بعد نضجه ووصوله إلى مرحلة الرشد العقلي . . . فهل يعقل بعد ذلك من تواكب الكذب من أشخاص متعددين ، لا صلة بينهم على مرور الزمن ، بل كل يبشر بالآخر ويدعو له ، وأما الذين استمروا على عقيدتهم ولم يرضوا بمن جاء بعد نبيهم فهؤلاء المتعصبون الذين يقولون ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ اقتداء بلا فكر وسير بلا بحث ولا تمحيص .

ماذا يزيد الوحي على العقل ؟

إن الإنسان يملك عقلاً مدركاً للكثير من حقائق الوجود ، ولو بلغ من ذروة النضج الفكري فلن يحيط بجميع المدركات الحسية والاجتماعية والاقتصادية ولذا نرى مجتمعات العالم اليوم التي ابتعدت عن الوحي الإلهي تتخبط في دياجير الضياع ، ففي كل يوم قانون ينص ، وقانون يبطل ، وحركة تقوم على أسس جديدة وأخرى تندثر ، وكلها بفعل الضعف الإنساني ، فلو سلكت الإنسانية درب الحياة المعبدة من وحي السماء لما أعوزتها كل هذه

الهموم ولوجهت طاقتها إلى علم جديد ، أو بحث مفيد ، ونرى أن العمل الذي هو نتاج قد سخر لهدم كيان البشرية ، ولتقويضها بدلاً من إصلاحها وسعادتها ولذا قال ليكونت دي نوي أستاذ الفلسفة في السوربون : (فالذكاء وحدة غالباً ما يؤدي إلى آراء هدامة أو إلى مناقشات عقيمة معقدة متشابكة إذا كان مجرداً عن المبادىء الخلقية) وهذا ما نشاهده في تزايد الصراع العالمي البعيد عن المثل العليا فما هو الإنتاج ؟

إنه مفكر يبحث ، أو فيلسوف يبدع ، ولا جرم أن الوحي هو رديف للعقل يضبط له طريقة حياته في هذه الأرض ، ويصحح له أخطاءه ، وينقذه من هفواته ، فالإنسان الذي يطلب السعادة في الدنيا بعقل مجرد غير محاط بهالة الوحي وقدسيته فهو كالمجنون يجري وراء ظله ليمسكه فلا يدرك شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع .

وما الأنبياء الموحى إليهم إلا أمثلة للكمال الإنساني في هذه الخليقة تنصبهم يد الله على طريق الحياة لتنتهي فيهم عصور وتبدئ بهم عصور وليسددوا خطا العقل في تاريخه الطويل .

وفي نهاية المطاف لنقرأ ما قاله القرآن على لسان المنكرين للوحي :

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس

وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .

ولكن القرآن يردّ على هؤلاء المتخرصين الذين أبوا أن يدلوا بحجتهم ، وإنما أطلقوا محض الشك ، فوصف لهم حياة محمد قبل أن يهبط عليه الوحي وبين أنه لم يكن يعلم عن الوحي شيئاً ولم يقص عليهم طوال حياته ما يدل على شروع ولو نفسي لهذا الادعاء الذين يظنونه ، بل كان في حيرة من قومه ، يعيش بعيداً عن تقاليدهم وعاداتهم وعباداتهم ، ولم تظهر في فترة من فترات حياته أية فكرة عن الوحي أو ما يدل على ما سيؤول إليه في مستقبل حياته ولذا جاء في القرآن :

﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون[1] ﴾ .

وهل يعقل من إنسان يريد أن يأتي بشيء جديد لم تظهر بوادره على نفسه ؟ وكما قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(١) يونس ١٦ ـ ١٧ .

والغاية الكبرى من هذا الوحي : تظهر في هذه الآية القائلة : ﴿ إنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[1] .

وفي قوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾[2] .

وفي قوله : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقىٰ إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾[3] .

---

(١) الشعراء ١٩٢ .
(٢) الشورى ٥٢ .
(٣) القصص ٨٦ .

الباب الثاني

لمحة عامة :

لا بد من متابعة الفكرة التي سبق أن وضحنا بعض النقاط الهامة فيها وذلك بعد أن وصلنا بالقارىء إلى مرحلة هامة لنبدأ في الإجابة عن السؤال الخطير الذي يسأله المؤمن بالله والشاب الناشىء الذي لم يدرس حياة محمد دراسة وافية وهو هل محمد رسول ؟ وما هي الأدلة العقلية القاطعة على نبوته ؟ علماً بأننا في عصر العلم والبحث فسنعمل جاهدين بعقل متحرر ، وفكر يبحث عن الحجة البينة ، والبرهان الساطع ، فسوف نبدأ في هذه الأدلة دليلاً إثر دليل ومن ثم نناقش ما قاله كبار الفلاسفة والعلماء والحكماء في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

الدليل الأول

النبوة بين التصديق والتكذيب

كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار ، يخرج المصلح فيوجد في الكون ينبوع الإنسانية المسمى بالحق ، وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها وليس الحق إلا يقظة النفس تحقق فضائلها . والشمس خلقها الله وأمدها بقدرة لتحويل الأشياء وتغييرها ، والمصلح يبعثه الله حاملاً مثل تلك القدرة في عمله الروحي والحضاري فتترقى به النفوس وتسمو . ولكن بعض المصلحين يطلق عليهم اسم (النبي) . . وهو الذي يعلم ما ستنبأ به النفوس في حساب عن كل ما اقترفه الإنسان بعد حياة الجسد ، وهو الذي يطلب من الناس اتباع شرع يدعيه أنه من عند الله ، وفيه أوامر ونواه ، ولا بد للإنسان الذي يفاجأ بهذا النبي من سؤال عميق لنفسه ، هل هذا النبي صادق ؟ ما هي الأدلة على صدقه ؟ ونحن في مناقشة حول صدق محمد بن عبد الله ، ولا شك أن معرفة المرء تؤخذ من بيئته ، فلنتصفح ما كان عليه محمد في قريش .

لقد كان تاريخ محمد بن عبد الله مشرقاً أخاذاً في مكة ومن ذلك

تسميته بالصادق الأمين ، وإجماع أهل مكة على نبله وصدقه وشرفه وقد وصف بأنه (يصل الرحم ، ويصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق) ولا بأس علينا إن استمعنا هذا الأثر التاريخي المشهود له بالصحة ، الذي يبين فيه رجل من كبار قريش صفات محمد ، وذلك عندما سئل من قبل هرقل عظيم الروم ، علماً بأن أبا سفيان كان من أشد أعداء محمد في بداية دعوته ويصرح بذلك . . . فهذه الحادثة كما رواها البخاري بسنده إلى عبد الله بن عباس قال : « إن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام ، في المدة التي كان رسول الله صادًّاً (جعل بينه وبينهم مدة يتهادنون فيها وهي مدة صلح الحديبية) فيها أبا سفيان ، وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال :

أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

قال (أبو سفيان) فقلت أنا أقربهم نسباً .

فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه .

قال (أبو سفيان) فلولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه .

ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلتُ : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا .

قال : فهل قال هذا القول فيكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت :

بل ضعفاؤهم .

قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا . ونحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال أبو سفيان ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : هل قاتلتموه ؟

قلتُ: نعم .

قال : فكَيف كان قتالكم إِياه ؟

قلت : بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال لترجمانه : قل له :

سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه ذو نسب فيكم . . . وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا . .

فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . . قلت فلو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه . . وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون . . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف . فإن كان ما تقوله حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . . ولكن قيصر حين رأى نفوذ الروم خاف على ملكه أن يفلت منه) .

وبعد اطلاعنا لهذه الوثيقة التاريخية الرائعة ، التي تبين لنا حياة محمد وصدقه ، فلا عجب فقد سطرت حياته ، ورعيت منذ نشأته حتى بلوغه الأربعين سنة . وكلها مليئة بالأخلاق السامية . والمعاملة الطيبة والمحاولة الهادفة الجادة .

لقد كان محمد ﷺ يعيش ضمن نفسه بعيداً عن قريش في خيلائها وانحرافها وصلفها وهذا كله ليشهد لنا أمام أصول التاريخ ، بصدق الراوي ، وصدق الرواية ولأنه لا يقبل الأمر إلا من رجل عرف بالصدق والضبط والإتقان . . . ولو كان لديه أي انحراف في مسيرته قبل البعثة أو بعدها لسطرها مخالفوه ، وما أكثرهم ، ولأوجدوا المجلدات على كلمة يعثرون عليها ، ولكن صفاء تاريخه وصدق طويته لم يدع في التاريخ شائبة . وإن استنتاج هرقل المنطقي : كيف يدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله . . . وهذا لعمري هو المنطق السديد ، والاستنتاج الصائب ، والمحاكمة الفكرية المنطقية . بل ماذا يستطيع الجاحدون إزاء هذه الوثيقة ؟ **أيكذبون محمداً أم يقولون إنه عبقري ؟ وهل يعقل لعبقري أنه كاذب ؟ ثم هل يعقل من صادق عرف بالصدق ؟ ادعاء ما لا يستطيع البينة الفردية على دعواه** . علماً بأنه لم يجرب الكذب في الأمور البسيطة فكيف يقفز من الصدق المتفق عليه إلى الكذب البواح وبطفرة واحدة .

ولا بأس إن تابعنا حديث الصدق والكذب عند محمد لنتحرى الحقيقة ، وفي هذه الوثيقة الثانية شعاع آخر ، لعله يدخل إلى القلوب المكنونة ، فعندما دعا قريشاً في بداية دعوته ، واجتمعوا حوله ، وأخذ منهم ما يثبت صدقه عندهم ، وأجمعوا على ذلك ،

فقال في ذلك اليوم على مشارف مكة :

« يا صباحاه ! يا صباحاه ! » جرياً على عادة العرب حين يتداعون لأمر مهم، وحين يستصرخون لدفع خطب ملم ـ فلما اجتمعت إِليه بطون قريش قال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ـ وكان القوم الذين خاطبهم الرسول الكريم ووجه إليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ولم يألفوا التعمق والتدقيق ولكنهم كانوا واقعيين عمليين رزقوا الفهم وسرعة الإدراك فاستعرضوا تاريخ هذا الإنسان المنادي فلبوه ولم يتكلموا حتى يسمعوا منه وكانوا عقلاء منصفين ـ فقالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . . .

يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة . . . إِن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ، إِلا أن تقولوا لا إِله إِلا الله . . . يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنني لا أغني عنكم من الله شيئاً . . . إن مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو ، فانطلق يريد أهله أن يسبقوه إِليهم ، فجعل يهتف يا صباحاه ! يا صباحاه أتيتم !

هذه الصيحة العميقة خرجت من قبل رجل ، ووعاها رجال ،

فمنهم من هدي منطلقاً من استنتاج منطقي ، أجري عليه التعميم ، وهو قولهم (أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط . . . قالوها : صراحة . . . قالوها وهم لا يعلمون شيئاً من مراده . فمن صدقه بعدها ، كان طبيعياً في فكره ، ناضجاً في محاكمته ، رضي في الفرض ثم وصل إلى الطلب ثم قبل في الجواب وأما أولئك الذين أعرضوا . . وما زالوا معرضين ، فلا بأس فإنهم قد وضعوا ساتراً أمام العيون ليحجبوا أنفسهم عن الحق ، والحق الذي لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة حين يقولون عن محمد بن عبد الله ـ الذي يعرفونه حق المعرفة ؟ إنه كذاب . . . ! إنما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل ، وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء ، ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة ، ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء ! .

حرارة الصدق :

ولا شك أن الصادق يلمح المستمع له حرارة تنبض بالحياة ومما نرى في نبضات الحق التي خرجت من محمد بن عبد الله دون سابق تصميم وهذا مصداق قول الشاعر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

إنها كلمة الثبات حين رأى عمه يريد أن يسلمه لقريش فقال له :

يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه . . . !

يا لها من كلمة تثبت صدق قائلها ، وعمق عقيدته ، ويقين منطلقه ، ولنتابع المناقشة التي جرت بين محمد بن عبد الله وقريش ، فإننا سنرى ما يحاولون من لين واستدراج . ومداهنة وملاحظة ، ليخفف من انطلاقته ، فأخذوا يعدونه الوعود إِثر الوعود ويعرضون عليه العروض الشتى . . . فما استطاعوا أن يصلوا إِلى شيء فأخذوا يعاتبونه فيما أدخله على قومه من شقاق ، وما جاءهم به من خلاف ، عرض وعتاب ، تحذير وإغراء ، استدراج وملاينة . . هذا لعمري أكبر وسيلة إليه لو لم يكن صادقاً في دعواه . . . ثم عادوا يلحون عليه بما عرضوا عليه . . من الملك . . والسلطان . . والمال . . والثروة . . والطب والعلاج . . وما إِلى ذلك من إغراء . . تستمال فيه النفوس العظيمة ، وتستجلب القلوب الشاردة ، وتشترى به الضمائر . . وهكذا فلم يجدوا منه جواباً إِلا أن قال لهم :

ما بي ما تقولون . . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم

رسولا ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . . .

ونظرة بسيطة إلى أعماق الفكرة التي صرح بها محمد بن عبد الله بعد العرض والإغراء تجعل الإنسان الغريب عن هذا الموضوع في حيرة من أمره وإذا زاد بعد ذلك في معرفة صاحب هذا القول لا يلبث حتى يقول هذا كلام رجل صادق .

وهذا ما جعل الدكتورة لورافيشيا فاغليري أن تتكلم بصراحة وحرارة عن صدق محمد في دعواه فقالت في كتابها (دفاع عن الإسلام) :

« وحاول أقوى أعداء الإسلام ، وقد أعماهم الحقد أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة . لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال والتعظيم من مواطنيه ، بسبب أمانته وطهارة حياته .

ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين ، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذباً ؟ كيف جرؤ على التبشير ، على الرغم من إهانات

مواطنيه إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه ـ وهو الرجل ذو النظرة السليمة ـ حثاً موصولاً ؟ كيف يستطيع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً ؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات في مكة في نجاح قليل جداً ، وفي أحزان لا تحصى ، إذا لم يكن مؤمناً عميقاً بصدق رسالته ؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين والنبلاء والأذكياء ، وأن يؤازروه ، ويدخلوا في الدين الجديد ، ويزجوا أنفسهم بالتالي في مجتمع مؤلف في كثرة من الأرقاء والعتقاء والفقراء المعدمين إذ لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق ؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك . فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقاً وأكيداً . وإن القارىء للأسطر التي دونتها دكتورة التاريخ الغربي والإسلامي في جامعة إيطاليا ليلمح التحليل العلمي المدروس للشخصية التاريخية الدينية والنتيجة المنطقية السليمة .

وإن في متابعة الأقوال التي تخرج في حرارة وعمق العاطفة من صاحبها فإنها لتوصلنا إلى اليقين بعمق إيمان صاحبها ، كما يقول برنارد بردماج (إن الفكر المندفع الذي تقويه ريح طيبة من العاطفة العميقة هو أعظم قوة على الأرض) فعندما صدع محمد بن عبد الله في رأيه قاومته قريش برجالها بحقدهم وحسدهم . . . فأحب أن يدعو في الطائف لعله يجد أذناً صائغة ، فقاوموه مقاومة اللؤم والقسوة وحرضوا عليه الأطفال والعبيد ، وضرب بالحجارة حتى

سال الدم من أخمص قدمه وما تغيرت نبرات الصدق عنده ، وما تبدلت عاطفة الإيمان عنده ، وإنما انكشفت نفسه عن حقيقة أغوارها بعد أن تحركت نفسه بالأمل ، وجاش صدره بالضراعة . ومال إلى جدار في بستان ، واتجه بقلبه إلى الله يبتهل إليه ويرجو منه الغوث والرحمة ، ويستعيذ من خواطر الضعف والخور والإخفاق ، وهواجس اليأس والقنوط . . . فصلى ركعتين ثم رفع يديه إلى الله قائلاً :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين . . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك !! . . . » .

يا لها من كلمات عميقة . . . إنها لا تخرج إلا من قلب صادق ، متحرك بالحقيقة ، والمتبصر يرى أن العقيدة التي جاء بها قد أخذت عليه عقله وسلوكه وعاطفته فصار عقيدة مجسدة ناطقة وهذا لا يتم لكاذب مداهن يصبو لتحقيق غاية في نفسه وإن في

عبارة أحد رجالات المدينة المنورة عندما وفد إليهم محمد لدليل آخر إذ قال عبد الله بن سلام لما قدم محمد المدينة . . . انجفل الناس[1] إليه ، وقيل قدم رسول الله . . . قدم رسول الله . . . فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله . . عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب[2] فالكاذب له انطباعات خاصة في نفوس المتطلعين إليه . والصادق يظهر في انعكاس عاطفته ، وشدة يقينه بما يقول ولذا يقول الدكتور نظمي لوقا في كتابه (وامحمداه) :

(فأي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من أبي القاسم ﷺ الذي حوّل الألوف من عبادة الأصنام إلى عبادة الله رب العالمين . ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان ، ولم يغير من جهاده لشخصه بعد انتصاره كما يقبل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام .

حفاظاً على معنى الشرف ، وصيانة لحق المروءة ، أوجبت على نفسي ذلك الإنصاف لشخص أبي القاسم وللرسالة التي حملها إلى الناس ، في أمانة وصدق وتجرح لا يبارى . . . فشهادة الحق من أوجب الأمانات والساكت عن الحق شيطان ، فالملام كل

---

(١) انجفل إليه / وفدوا عليه .
(٢) رواه الترمذي .

الملام على من يدرك الحق كرابعة النهار ، ثم يتخاذل عن إعلانه ، ويترك رايته تتنكس بعين السفلة والطغاة واللئام . . .) .

وقبل نهاية هذا الموضوع علينا أن نسأل أنفسنا ما هي الفائدة التي كان يفكر بها محمد لو كان كاذباً ؟ . . الملك ! دعي إِليه بلا جهاد فأباه . . المال ! أغرته قريش برؤوس أموالها فرفض . . . المكانة الاجتماعية ! كانت له المكانة الرفيعة وعرضت له سيادة مكة فلم يرض . . . ولذا علينا أن نأخذ بمقياس أخير للنبي الصادق والنبي الكاذب وهو معيار رائع عرضه الدكتور والعالم الكبير وأستاذ السوربون وهو ليكونت دي نوي يقول : كيف نستطيع أن نميز بين النبي الحق والنبي الكاذب ؟ .

إن ذلك يمكن بوساطة المعيار الذي وضعناه وهو : إِن النبي الكاذب هو الذي تتنافى عقيدته مع التطور ، أو لا تأخذه بعين الاعتبار ، وتتجاهل العزة الإنسانية ونعيم الحرية[1] .

وإِذا ما وضعنا هذا المعيار الرائع مقياساً لكشف الحقيقة عن صدق رسالة محمد بن عبد الله وجدنا عقيدة قد وضعت خطوطاً عريضة لأمور كثيرة وتركت الأمور البسيطة للزمن ومنها :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . ﴾

---

(١) مصير البشرية ص١٢٩ .

فنجد في هذه الآية التي جاءت في عقيدة محمد . . . أنها تركت الاستطاعة مطلقة تتغير بتغير الظروف وحسب تزايد القوى البشرية وهذه ملائمة طبيعية للتطور الإنساني .

ومن ثم نجد أن الرسالة بشكل عام فيها نقاط ثابتة ونقاط متغيرة وقد تركت للظروف ولذا جاءت القاعدة الفقهية الشاملة التي تقول :

تغير الأحكام بتغير الأزمان . .

وأما بالنسبة للفقرة الثانية وهي أن تأخذ بعين الاعتبار العزة الإنسانية فعلينا أن نبحث قليلاً لنجد أن القرآن الذي أنزل على محمد يقال فيه :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ . .

﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ . .

والمتأمل يغريه النظر ، ولا شك أن المتأمل سيسلمه تأمله إلى العجب من كثرة الأمور التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام لرفع الإنسانية إلى أعلى مراتب الكمال . . وفي نهاية المطاف فلنتصفح هذه الآيات :

﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ . .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ

الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم . . . ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [فاطر : ٥] .

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ، إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ [الأنعام :] .

لعل القارىء يقول لماذا أتيت بهذه الآية في هذا الموضوع علماً بأننا لم نناقش القرآن ومصدريته ، أقول لك إذن فلنقلب الصفحة عن هذا البحث ونناقش الموضوع الثاني ألا وهو معجزة الرسول الكبرى . .

الدليل الثاني
التحدي ومعجزة الرسول

إن لكل دعوة بينة ، ومن البينات تظهر الحقائق ، وتدعم الحجج الواضحة ، ولو تصفحنا تراث الإنسانية لوجدنا أن هذا القرآن ، هو البينة الغراء التي تشهد لنبوة محمد ، وإِن الخوض في هذه الفكرة ، تدعونا للبحث الطويل . . وهنا لدينا فرضيتان :

الفرض الأول : أن يكون الرسول هو الذي أوجد هذا القرآن وبالتالي لا يمكن تصديق نبوته ، لأنه يشهد لنفسه بنفسه ولا يقبل شهادة الإنسان لذاته .

والفرض الثاني : وهو أن يكون الكتاب منزلاً من حكيم خبير وما دور الرسول فيه إلا التبليغ المبين ، وبهذا نصل إِلى الشهادة الحقيقية من القرآن بنبوة محمد بن عبد الله لأنها شهادة تمت من قبل صاحب التنزيل وهو الله جل جلاله .

وإِن نظرة سريعة خاطفة لآيات القرآن تدلنا على أن رجلاً أمياً لا يمكن أن يوجد تشريعاً متكاملاً ، ولفظاً معجزاً ، ومنهجاً يوضح

فيه للإنسانية سبل سعادتها بطريق مختصر ، وإن قيل : إن هذا الرجل عبقري فذ ، من عباقرة الأجيال . . . استطاع أن يكتب كما كتب الآلاف من العلماء في بحوث شتى . .

وهنا علينا أن نجيب هؤلاء الذين يقولون هذا القول : هل يمكن لهذا العبقري أن يكتب كتاباً يتحدى به الإنسانية مجتمعة ، علماً بأن اللغة العربية في عصره كانت في ذروة كمالها . . . ثم استمر في تحديه لبني قومه على الإتيان بجزء من القرآن ثم بعد ذلك بسورة واحدة وقد جاء فيها : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : ١٤] .

وعندما اجتمع أهل مكة ، وسمعوا هذا التحدي السافر ، لم يكن منهم إلا السكوت والمكابرة ، وإذ بالتحدي يزداد ، فتأتي آية أخرى تتحدى بسورة واحدة من السور ليتسنى لهؤلاء العرب أن يقفوا وقفة عاقل ، ويشعروا بحقيقة الموقف ، وإنها لفتة قرآنية رائعة وتخفيف في التحدي إلى منزلة جيدة فجاء في القرآن :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت

للكافرين ﴾ ،[البقرة : ١٥] .

والمتحري للمعنى المراد في الآية يجد التحدي مع النتيجة سلفاً وهي عدم الإمكان ، وقد قطع دابرهم بأنهم لن يفعلوا ، وهي كلمة يستحيل التلفظ بها إلا ممن يملك ناصية البشرية ، ولا يمكن أن يقولها عربي من العرب أبداً . . وقد سمع هذا التحدي بلغاؤهم وشعراؤهم ، واستقرت في آذانهم ودارت على ألسنتهم ، وعرفوا أنها تنفي عنهم القدرة نفياً ، وتعجزهم حتى آخر الأبد ، فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا ، وما كان بوسعهم إلا المجانبة للموضوع وعدم المجابهة له لسطوع بيانه . . . فبدأوا يقولون : إنه ساحر ومرة شاعر . . . وأخرى مجنون . . .

وقد وصف الجاحظ هذا التحدي وما آل إليه عند العرب فقال :

بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، **فدعاهم بالحجة ، فلما قطع القدر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة** ، حملهم على خطهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عليهم ، وأعمامهم وأعلامهم ، وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويتحداهم به صباحاً ومساء على أن يأتوا بسورة من مثله ، فكلما

ازداد تحدياً لهم ، وتقريعاً لعجزهم كشف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الإمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال : فهاتوها مفتريات ، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولا طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش ، والعرب في الرأي والعقل طبقات ولهم التعديد العجيب ، والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم تحدىٰ به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، **والخطأ** المكشوف البين مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إِليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر

الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه من المحال أن يطيقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه أهـ .

إنه بحث وأطنب ، وأجاد في مناقشة الوضع الذي كانت عليه قريش إبان التحدي ، ولقد جاء بكبد الحقيقة عندما قال : هم أعلى طبقات العرب ، وبيدهم مقاليد الكلام وقد تحداهم القرآن فكيف يسكتون . . . وما السكوت في هذا المقام إلا اعتراف ضمني بقدرة المتحدي وضعف ما سواه . . ولكن المتطلع في تراثنا يجد أن بعض العرب حاولوا مضاهاة القرآن وحاول بعضهم معارضته ومشاكلته ومنهم مسليمة بن حبيب (الكذاب) وقد جاء بأشياء لا يقبلها أديب ، ولا يرضاها حكيم عاقل يحترم نفسه وذلك مثل قوله :

والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض إنه لعجب محض ، وقد مرم المذق فما لكم لا تمجعون[1] .

وقال : (والمبديات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص١٥٦ .

قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالةً وسمناً قد فضلتم على أهل الوبر ، وماسبقكم أهل المدر ، ريفكم ما منعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه) .

وكذلك جاءت سجاح بكلمات تدعي أنها يوحى إليها : ومما قالته لمسيلمة عندما سألها أوحى الله إليك قالت « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، ما بين صفاق وحشا » وقال فما بعد ذلك قالت : أوحى إلي : إن الله خلق النساء أفواجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن مقساً إيلاجاً ثم نخرجها إذا شئنا إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً نتاجا . . .

هـذا الكـلام علـى هـذا النمـط واه سخيـف ، لا ينهـض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج متبدل المعنى ، مستهلك من جهتيه ولا يرضى به عاقل منصف وبالحقيقة هو تقليد من حيث الأسلوب ، وضياع في المعنى . .

وقيل إن ابن المقفع حاول مضاهاة القرآن ولكن بعد فترة وجد نفسه يسير في صحراء لا يجد لنفسه المخرج فمزق ما كتب وعاد إلى صوابه .

وكذلك أبو الحسن ابن الراوندي حاول في عدة كتب له أن يأتي بأشياء كثير ليشوه الفكرة الصحيحة التي كانت في زمنه عن القرآن

وكل ذلك بدس من يهودي كان يؤلف له وهو (أبو عيسى الأهوازي) وقد ذهب قيمة ما كتبه في مقالاته وكتبه الكثيرة كالزمردة ، ونعت الحكمة ، والتاج عند مناقشته مع أبي علي الجبائي : قال ابن الراوندي : أنا أعلم بمخازي علومك وعلوم أهل دهرك ، ولكن أحاكمك إلى نفسك ، فهل تجد في معارضتك له عذوبة ، وهشاشة ، وتشاكلاً وتلاؤماً ، ونظماً كنظمه وحلاوة كحلاوته . . قال ابن الراوندي : لا والله .

قال الجبائي : قد كفيتني ، فانصرف حيث تشاء .

ويقال إن ابن الراوندي كان أبوه يهودياً وأسلم والخلاف في أمره كثير .

ومهما حاولنا تمويه الحقيقة ، فهل يمكن للتاريخ أن يطمس ، وللأقلام أن تقف والجواب : لا . . إذن لماذا لم تتجرد أقلام الأدباء والحكماء والفلاسفة للإتيان ببحث كالقرآن . . وأسلوب كأسلوبه . . الجواب بسيط . . إنه الإعجاز ولأن في آية التحدي إعجاز وتعجيز للعالم كله مجتمعاً . .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء : ٩] .

انظر إلى هذا النفي المؤكد ، بل الحكم المؤبد !! هل يستطيع عربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم ، وهو يعلم أن مجال

المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقيب قول القائل المتقدم لا يعيبه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك ، أو نافصاً ليكمل ، أو كلاماً ليزداد كمالاً ؟ ألم يخشَ محمد ـ لو كان من عند نفسه ـ بهذا التحدي أن يثير حمية أعدائه الأدبية فيهبوا لمنافسته ، وهم جميع حاذقون ؟ وماذا يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر ، فيكمل ثانيهم ما أنقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه ؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره . . فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة بل على الأنس والجن !! . . إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها إلا رجل يعرف قدر نفسه ، وهو مالئ يديه من تصاريف القضاء ، وخبر السماء ، ونحن قد عرفنا شخصية محمد المعتدلة ، واتزانه الرصين . . . ولكن قد رمى هذا التحدي بين أظهر العالم ، فكان القضاء المبرم ، وقد سلط إقحامه على العقول والأفواه ، فلم يهم أحد بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح والإخفاق الفاضح على مر العصور والدهور .

فماذا يقول المكابرون . . . هل أنزل من السماء . . . أو ماذا . . ؟ وإن الذين سمعوا القرآن من أهل مكة ، لم يلبثوا ملياً حتى أظهروا إعجابهم من حيث يدرون ومن حيث يجهلون . .

وانطلقت ألسنة بعضهم بِالمدح والوصف الحقيقي بشعور بعيد عن الحقد ومنه :

جاء الوليد بن المغيرة مرة إِلى محمد بن عبد الله وبدأ يتكلم معه بأسلوب رقيق وبعد نقاش طويل قال اسمع يا أخا العرب : فأسمعه آيات من القرآن . . . فكأنه رق له . . . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إِن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً ولتعرض لما قاله ، فقال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا أشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إِن لقوله حلاوة وإِن عليه لطلاوة وإِنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإِنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإِنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى أفكر . . . وبعد مدة اجتمع بأهل قريش فقال أحدهم أصبأت يا وليد قال لا ولكن أقول : شاعر ثم وقف وتردد ثم قال أقول ساحر فجاءت الآيات تصف تردده :

(إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فقال إِن هذا إِلا سحر يؤثر ، إِن هذا إِلا قول البشر . . .)

ومن هنا نلمح الإصرار على المخالفة والنتيجة قد غايرت المقدمة . . التي صرح فيها حلاوة القرآن . . ومن ثم فكر لإرضاء بني قومه ولو على حساب الحقيقة التي شعر بها في أعماق وجدانه .

ولا بأس أن نرد هذه الحادثة التي جرت بين رجل من قريش أوفدته إلى محمد كما جاء في كتاب المغازي لابن إسحٰق :

أرسلت قريش عتبة بن ربيعة وهو رجل رزين هادئ فذهب إلى محمد بن عبد الله[1] فقال له : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا من أموالنا حتى تبرأ . فلما فرغ من قوله قال له محمد ليس في كل ما تقول واسمع : فتلا عليه صدر سورة السجدة :

﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا

---

(١) قصة أخرجها ابن إسحق في المغازي بسند حسن .

وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . . . ﴾[1]

حتى وصل إلى قوله :

﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة عاد وثمود ﴾

ولقد تخير محمد عليه الصلاة والسلام هذه الآيات من الوحي ليعرف محدثه حقيقة الرسالة وما محمد إلا رسول يحمل كتاباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من ضياع . وهو قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . لقد جاء عتبة باسم قريش ويريد أن يترك محمد الرسالة والدعوة التي جاء بها ولكن بعدما استمع عتبة إلى هذه الآيات ، تيقظ ما كان نائماً من فكره ، واستمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجعاً من عاطفته ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكنم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . لقد وضع عتبة يده على جبينه وقام وكأن الصواعق ستلاحقه وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه . . إنه أثر القرآن ويا للأسف . . لم تقنع العقول المكبلة بتقاليد الماضي . . . ولو أن

---

(١) فصلت/ ١ ـ ٦ .

أهل مكة ترددوا في تصديق محمد بن عبد الله حتى يبحثوا أمره ويمحصوا رسالته ويزنوا على مهل ما لديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل مدرك ولكنهم نفروا من رسالة محمد نفور المذنب من ساحة القضاء بعدما انكشفت جريمته وثبتت إدانته . . ولو لم يكونوا على هذه الحالة لأجابوا القرآن في تحديه . . وعارضوه في تقريعه . . ولكن أنى لهم . . ذلك . . ؟ لأن وجود الإعجاز في القرآن ، وروح التحدي تسير في عروق كل من يقرأ آيات التحدي ، لأنه أسلوب منفرد لا يشابهه أسلوب . ولو كان من أسلوب إنسان لجاء مشابهاً لأحد أساليب العرب ولذا وقع أهل مكة في شبائك الحيرة فقالوا تارة شاعر . . وتارة كاهن ، وأخرى ساحر . .

ولم يثبتوا على شيء لاضطراب تقييمهم المخالف للحقيقة التي نطقت بها أفواههم مرات ؛ وجلبهم القرآن ليلاً مرات أخرى . ومما يروى أن نفراً من كبار قريش ذهبوا لاستماع القرآن سراً ومنهم (الوليد بن المغيرة ـ وعمرو بن هشام ـ وقيس بن هشام ـ والأخنس بن قيس) وبعد أن انتهوا من سماع القرآن من شقوق النوافذ أثناء صلاة محمد عليه الصلاة والسلام انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوا واستمعوا إلى ما يقوله فتستحليهم تلك الآيات فيؤمنون بمحمد وتعاهدوا على ألا يعودوا لمثل ذلك . فلما كانت الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ،

فاشتد نكيرهم ، وتعاهدوا ، وتحالفوا ، ألاّ يعودوا فلما تعالى النهار . جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس ، فقال ما تقول فيما سمعت من محمد . فقال الأخنس ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا نعم ، قالوا فينا السدانة . قلنا نعم ، قالوا فينا السقاية . قلنا نعم . . يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي !! والله ما آمنت به أبداً ! . . فما صدهم إذن عن الإيمان إلا العصبية المقيتة كما ترى . . وكما قرأت في مواضع شتى . . فنزلت الآية تبين تلك العدواة العصبية التي لا تعتمد على حجة منطقية ولا على رد علمي سليم :

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . . ﴾ .

وبعد هذا كله : نقول للذين يغمطون الحق . . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . وإن الباب مفتوح لكل من يرد على التحدي القرآني علماً بأن أهل اللغة الأوائل لم يستطيعوا الوقوف أمام تحدي القرآن فمن الأولى أن يكون غيرهم أضعف منهم . .

وقد أيقن بلغاء العرب معنى التحدي فيئسوا من المعارضة لأنهم وجدوا في القرآن ما يغمز القوة ، ويحيل الطبع ، ويخاذل النفس مصادقة لا حيلة ولا خدعة وهكذا اعتقلهم عن الكلام فيه

وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم وجميع الأمم اللاحقة للتحدي ، وجعل التحدي أكبر دليل لكل مخالف .

فهل استطاع البلغاء مقارعة التحدي بالمماثلة . . أو وقف جميعهم صاغرين فما بال الأقزام اليوم . . الأقزام في الأدب والبلاغة والفلسفة . . يحاول بعضهم أن يتطلع مستهتراً بالمنطق ـ ويناقش أموراً جانبية وجزئية لأن عقولهم الكليلة لم تستطع مناقشة الكليات العامة فشككوا بالجزئيات[1] كأمثال صادق جلال العظم في كتابه نقد الفكر الديني وإن مناقشته للجزئيات ضعف كبير في حجته ولبلادة فكره . وأما إذا قلنا له تعال ناقش كتاب الله كله ، ناقش فكرة وجود الله بحد ذاتها . . وناقش فكرة بعثة محمد رسول الله . . ولى مستدبراً خائراً لا يلوي على شيء لخوره ولأن بضاعته مزجاة ، وعقله فيه خبل ، والأسس التي ركن إليها هاوية ، فالمناقشة تكون للكليات وليس للجزئيات علماً بأن مناقشة الجزئيات اعتمدت على بحوث مبتورة واطلاع ضحل ممزق . .

ولذا أقول إن شعور أبلغ الناس بضعفه عن أسلوب القرآن ليكون على مقدار شعوره من نفسه بقوة الطبع ، واستفاضة المادة ، وتمكنه من فنون القول وتقدمه في مذاهب البيان ، فكلما تناهى الأديب في علمه تناهى كذلك في علمه بالإعجاز ، وما أهل الأرض

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٢٢٥ .

جميعاً في ذلك إلا كنفس واحدة فجاء التحدي للجميع .

﴿ أم يقولون تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [الطور : ٣٤] .

والسبب الكبير الذي يعود لعدم محاكاتهم للقرآن ، وإبطال تحديه لهم ، على الرغم من شدة تقريعه ، وتعنتهم بالكفر والجمود وغير ذلك لأن ملكتهم اللغوية كانت سليمة ، وقد ملكوا القدرة الفنية ، وبلغوا الذروة في الأدب فصار حكمهم عن معرفة ، والضعيف إذا شعر بقوة خصمه الزائدة لا يحاول التطاول عليه وهذا شعورهم بالنسبة للقرآن ووقوفهم عن معارضته ، ولأن القرآن فيه مظهر غريب بإعجازه المستمر ، ولا يحتاج في تعرفه إلى روية فبمجرد أن يقرأه من اطلع على أساليب الناس يقع في نفسه معنى الإعجاز ، لأنه أمر يغلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه كالصوت المطرب المبالغ في الإطراب لا يحتاج المرء في معرفته وتمييزه إلى أكثر من سماعه وإن من الإعجاز ذلك النظم الموسيقي الواضح في القرآن وهذا ما بينه الكاتب الأديب الفاضل مصطفى صادق الرافعي قائلاً : إنه مما لا يتعلق به أحد ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا منه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواته ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق والتفشي

والتكرير[1] .

ويرى الرافعي « أن القرآن كان نمطاً واحداً في القوة والإبداع وإن مرد ذلك إلى روح التركيب التي تنعطف عليها جوانب الكلام الإلهي وهذه الروح على حد تعبيره لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن ، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيعه الناس ولولاها لم يكن ، فكأنما وضع جملة واحدة ، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب لما عرفت ، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبادات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه » .

ولذا تستطيع أن تلمح الصور الرائعة في كل لفظ ولا ترى في حقيقة الأمر ألفاظاً ولكن حركات نفسية في ألفاظ . .

وبعد هذا كله : هل بقي في عقلك شك أيها السائل ؟ . . هل بقي في خلدك سؤال ؟ فإذا ما زال يعلق في ثنايا الدماغ سؤال فانظر

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٢٢٥ .

معنا إلى هذه الآيات وتعال لنحللها :

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[1] .

انظر إلى هذه المقاطع الأربعة التي ألف بينها في معنى شامل هادف ، واضح ، ليدل بذلك على ظهور قدرته بعد بيان مخلوقاته . . أليس في كل كلمة منها في نفسها غرة ؟ . .

أما تشاهد أن كل مقطع بنفسه درة زمردية هبطت على النفس لتلبسها قدرة جديدة ؟ إنه كلام يصدر عن سمو ورفعة ، ونفاذ قدرة ، ويظهر جلياً في عظمة القدرة ويتسم بعزة خالصة . ويجمع رصانة مع رونق سلس رفيع ، ويحق لي أن أقول إن هذه الآيات شملت الإيجاز اللطيف ، إلى البلاغة الرفيعة ، وكل ذلك بخيال خصب وروح فياضة .

إنها الآية التي انتظمت من البديع ، وتضمنت بحثاً في كلمة وختمت غاية في جملة . . إنها آية واحدة من آيات الإعجاز .

وتأمل آية أخرى :

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده

---

(١) الأنعام ٩٦ .

لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[1] .

أنعم النظر في هذه الآية « ارجع البصر كرتين » مع مراعاة معانيها . وفكر ملياً ، تجد صفات عالية ، وكلمات سامية ، أما تلمح ورود هذه الكلمات من مصدر علوي وقدرة ربانية ، ولا تحوم عليها أفكار آدمية تعرف ضعفها عن الخوض في بحث وتهديد كهذا . . أي خاطر يرد على الإنسان أن يقول :

﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون ﴾ ؟

أي لفظ يدرك هذا المضمار ، وأي حكيم يهتدي إِلى ما لهذا من العمق والعلو وأي فصيح يدرك هذا النظم ؟ . .

لا جرم أن البيان الشامخ الذرى لا يرتكز على سطح الأرض وإنما يرتكز على دعائم غائرة في أعماق الثرى . .

لقد أطلت عليك كثيراً وما بقي لدي سوى نقاط متناثرة على أن أتمم هذا البحث . . لقد عجز الأوائل . . وعجز الأدباء في كل عصر . . فعليَّ أن أجمع لك أقوال الأدباء في كل عصر عن هذا

---

(١) غافر ١٤ ـ ١٧ .

القرآن لعلك تجد في لفتات كل أديب نسمة إيمان أو لمحة إعجاز :

١ ـ قرأت ما قاله الوليد بن المغيرة عن هذا القرآن : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته .

ويقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ص٨٨ .

تجد فيه الحكمة ، وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ونظم أنيق ومعرض شيق ، غير معتاض على الأسماع ، ولا مغلق على الأفهام ولا مستكره على اللفظ ، ولا مستوحش في المنظر ، غريب في الجنس غير غريب في القبيل ممتلئ ماء ونضارة . ولطفاً وغضارة ، يسري في القلب كما يسري السرور ، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب ، جموح على المتناول المنتاب ، كالروح في البدن ، والنور المستطير في الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهي .

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله ووضح جهله ، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس .

والقرآن كتاب دل على صدق حامله ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، وبرهان شهدت له براهين الأنبياء المتقدمين ، وبينة على طريقة ما سلف إلى الأولين تحداهم به إذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم .

ويقول الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن ، آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها الكواكب بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب ، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتز أنفالها ، وكم صدوا عن سبيله صداً ومن ذا يدافع السيل إذا هدر ؟ وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه ومن كل مواهبه باب ؟ فما كان إلا نور الشمس ولا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يصنع منه قطرة في سقائه . . ألفاظه إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نعيم الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان . . لا جرم أن القرآن سر السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول ، وكذلك تمادى العرب في طغيانهم يعمهون . . وظلت آياته تلقف ما يأفكون

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . .

ولا شك أنك قرأت ما قاله الجاحظ في بداية البحث . . وسأثبت لك ما قاله عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في كتابه مرآة الإسلام أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه ، والقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبي . . والعربي القديم من أهل الفصاحة واللسن والبراعة في تصريف القول قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التي يعرفها التاريخ . . وأغرب من ذلك أن أمماً أخرى ليس بينها وبين العرب أية صلة قد قرأت القرآن وسمعته في القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة فدانت له وخشيت وأيقنت أنه كلام لا مثيل له شأن آخر . ولست أذكر هنا تأثير القرآن في تغيير مجرى التاريخ وتحويله وها هي الأمة الجاهلة الغافلة التي تعيش في أمية شديدة التعصب للباطل يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض فاذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقي وظفرت منه بحظ موفور ، ونشرت هذه الخصال كلها بين أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة . . والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها

سلطانه . وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن ، ولكنها على كثرتها لم تقل في أعجازه كل ما يمكن أن يقال لأنه أروع روعة وأبهر جمالاً من أن يستنفد فيه القول أ . هـ

ولنفكر ملياً في هذه الآيات :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ، [النساء : ٨٠] .

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ ، [النساء : ١٧٤] .

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ، [المائدة : ١٦ ﴾ .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ . . . . [الأنعام آية : ٩٤ .

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً وقرآناً فرقناه لتقرأه على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً . . قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ . . . . [الإسراء : ١٠٦ ـ ١٠٧] .

﴿ هذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ [الأنبياء : ٥٠] .

﴿ إِنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإِنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الزمر : ٤٣] .

وبعد هذه الآيات الكريمة لا يسعنا إِلا أن نقول :

ما دامت قوة الخلق ليست في قدرة المخلوق فليس في قدرة بشر معارضة هذا الأسلوب المعجز وتحدي القوي الحكيم الخبير به .

فلنرفع رؤسنا ونقولها بصراحة علمية ﴿إنه تنزيل الحكيم الخبير ﴾

وهذا هو الشاهد الكبير العظيم على نبوة محمد فصلى الله عليه وسلم .

الدليل الثالث
توجيه القرآن وعتابه للرسول

إن الذي يتلو آيات القرآن يجد فيه صورتين صورة الإنسان الضعيف بين يدي الله الخالق العظيم . . . صورة الضعيف الذي يستمد العون من القوي العظيم . . ويستهديه ويستغفره ، ويصدع بما يأمره به ، وأحياناً يتلقى العتاب الشديد ، والتهديد ، والتقريع ، مما يجعل الإنسان يجد في أعماق نفسه ما يقنعه بالفرق الذي لا يتناهى بين صفة الخالق وصفة المخلوق . وبين أسلوب الخالق وأسلوب المأمور . . إنها صورة محمد رسول الله هي صورة العبد المطيع الذي يخاف عذاب ربه إذا عصاه . فيلتزم حدوده ويرجو رحمته ، ويُقِرُّ بعجزه المطلق أمامه . وعدم القدرة على التبديل والتغيير في حرف من كتابه المنزل عليه ؟

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن

أَتبع إلا ما يوحى إِلي إِني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [يونس :] .

نجد في هذه الآية الصفة الحقيقية للعبد العاجز عن تغيير ما ينادي به وما عليه في هذا إلا البلاغ المبين . . . وإن كلمة قل في القرآن وتكرارها أكثر من ثلاثمائة مرة تدل على أن المخاطَب منفصل عن المخاطِب ، ولتظهر فكرة الإيمان والتعليم والتوجيه .

﴿ وما ينطق عن الهوى إِن هو إِلا وحي يوحى ﴾ [النجم :] .

ومع ذلك فإننا نرى الفارق كبيراً بين الصورة المبينة لمحمد رسول الله وحقيقة الأمر فهذا العتاب الخفيف الذي يشوبه عفو الله عن رسوله وهو خطابه له في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك :

﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة : ٤٣] .

الواضح أن العفو لا يتم إِلا بعد الذنب ، وكذلك الغفران لا يتم إِلا بعد الخطيئة وهنا نلمح الصورة الواضحة للضعف المحمدي في هذه الآية :

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ١ ـ ٢] .

وفي آيات أخرى نقرأ الوعيد الصارخ . . وهل يعقل من إنسان يكتب بيده تقريعاً لنفسه . .

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة : ٤٤] .

فما هذا التهديد . . وما هذا الوعيد . . إِلا صادر من قوة أعلى . . موجهة قادرة . . عظيمة . .

والمتابع لسيرة رسول الله يجد أنه يعمل عملاً حسب ما يراه مناسباً وإِذ بالقرآن يخالفه على فعله ، ويعنفه ، ويعاتبه بشكل قاس ، وينقده نقداً مراً . . حتى في أقل الأشياء أثراً وخطراً ومن هذا ما نلمحه في قوله تعالى :

﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ [التحريم : ٦٦] .

وفي قوله :

﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

وفي العتاب الشديد بسبب استغفاره لوالده :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : ١٣] .

وفي قوله :

﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : ١٠٥] .

وهل سمعنا في آباءنا الأولين من يصم نفسه بالعمل مع الخائنين . . فلو كان القرآن من عند محمد لما وجدنا فيه هذا العتاب والتقريع والتوجيه القاسي والنقد المستمر لكل عمل يعمله مخالفاً فيه الأصول العامة للشريعة ومن ثم فلنصغ إلى هذا النوع القاسي من التقريع الشديد ، والنقد العميق للسلوك النفسي . .

﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

ومناسبة هذه الآية أن الرسول ﷺ استشار أصحابه في أسرى بدر ، فجاء الجواب متعدداً فأبو بكر قال يا رسول الله الفداء ، وفي المال الذي سيصلنا منهم قوة للمسلمين ولعلهم يسلمون بعد هذه المعاملة الطيبة . . التي عومل بها الأسرى . . وقال عمر : يا رسول الله إنهم رؤوس الكفر . وصناديد قريش فليضرب كل منا أخاه أو قريبه ، ونكون قد انتهينا من أشدهم قسوة على الإسلام والمسلمين ويقول الرسول تحليلاً لجوابهما : إن الله ليلين قلوباً فهي كالماء وإن الله ليقسي قلوباً فهي كالحجارة ، ويمضي على رأي

أبي بكر ومن ثم تنزل الآيات مخالفة لرأي أبي بكر . وعمل رسول الله . ويرضى الفداء من الأسرى ، ثم يخالف عمله بهذه الآيات ـ ولو كانت من عنده ـ ثم كيف تجادل عمراً في رأيه ويتهمه بالقسوة ثم يعدل إلى هذا الرأي دون سبب . . . أما تشاهد تناقضاً ملحوظاً لو كانت الآيات في القرآن من عمله وأسلوبه ونسج خياله . . . أما تلمح فكراً مضطرباً قلقاً متخبطاً يجعل من نفسه مهزلة لأصحابه ولكن الأمر ليس أمره وما هو إلا رسول يوجه إِن أخطأ ويرشد إِن حاد عن النهج الإِلهي وهذه الآية وفيها العفو عن هذا الخطأ المرتكب . وقال الرسول « لو نزل العذاب لما نجا منا إِلا عمر » ولكن العفو من الله . . . فليعتبر من كان في عقله ذرة فكر وليجب عن هذه الحقيقة الأبدية .

ولا بأس أن نتابع الآيات التي فيها التوجيه والتشريع . . . وهذا تقريع عنيف بعد عمل قام به رسول الله بحسن النية ، والرغبة في هداية عظماء قريش . ظاناً أن في هدايتهم هداية للعرب وهذه الحادثة تبين لك يا أخي القارئ مقدار عمق الفكرة التي يوجه إليها الرسول وكان قد غفل عنها أثناء اضطراب حبل الدعوة ، وهكذا اشتدت الأزمة بينه وبين قريش ، حتى دعوه لاجتماع معهم . . . . وأثناء اجتماعه في ـ نادي قريش ـ على الرغم من خطورة هذا الاجتماع وما يؤول إليه من نجاح أو إخفاق ـ يدنو منه رجل أعمى . . . ويتكلم مع الرسول يريد الإسلام . . ولكن الرسول

يسترسل في حديثه معهم ، آملاً في هدايتهم ، وقد أيقن أن في هدايتهم هداية لقريش ومن ثم للعرب جميعاً ، ثم يدنو ويتلفظ هذا الأعمى بألفاظ لا تسمع . . . فما كان من رسول الله وهو منهمك في حديثه مشغول في بحثه إلا الإعراض والصد وقد عبس في وجهه لعله ينصرف ويشعر عظماء قريش أنه ليس مشغولاً عنهم وأنهم يهمونه ، وهذا الرجل هو عبد الله بن أم مكتوم ولا بأس أن تقرأ هذه الحادثة كما جاءت في تفسير المنار : (عندما جاء عبد الله بن أم مكتوم إلى رسول الله وهو يدعو أكابر رجال قريش إلى الإسلام وقد لاح له بارقة رجاء في إيمانهم ويتحدثون معه وقد علم أن إقباله على غيرهم ينفرهم ، ويقطع عليه طريق دعوتهم ، وكان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، فتولى عنه ، وتلهى بهذه الفكرة ، ولم يكن يعلم قبل إعلام الله تعالى له : أن سنته في البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم ، وأوساطها ، دون أكابر مجرميها المترفين ورؤسائها) ففي هذه المشكلة أنزل الله بعض الآيات من سورة عبس : بحقه :

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ، أو يذَّكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهىٰ ۞ كَلا إنها تذكرة . . . ﴾ [سورة عَبَس : ١ ـ ١١] .

فهل ترى أشد من هذا التقريع ، ولو كان الكلام من بنات أفكاره لما سار القلم على هذا المنوال ولما مضى القلم بهذا التقريع ، وأي عاقل يرضى أن يسجل لنفسه تقريعاً يبقى مستمراً مع بقاء كتابه . . . يا للعجب . . . يا للخزي . . . يا للعار . . . كيف يرضى العقلاء أن يقبلوا بهذا . . . ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إِذن لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف الممات ، ثم لا تجد علينا نصيراً . . . ﴾ .

محمد يقرع نفسه . . . لا يقبله إلا صغار العقول . . . والمأفونون من الناس ، ومما جاء أن رسول الله عندما أنزلت هذه الآية أي عبس وتولى . . . بكى حتى إِنه لم ير أمامه ، وصار يتلمس الجدران كي يصل إلى داره من شدة حزنه ، ولا جرم أننا عندما نصغي إلى هذه الآيات المرشدة المؤدبة المعاتبة ، المنذرة ، يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ، ذي القدرة القاهرة ، والقوة الكبرى ، والإرادة التي لا يعقب لها ، ثم لا مانع أن نتابع هذه الصور المتعددة ، التي توضح لنا الفرق بين الذات الإِلهية وشخصية الرسل . . . ولنقرأ هذه الآية التي هي أشد إِنذاراً وتهديداً من سابقتها : في قوله تعالى :

فهذه الآية في حقيقتها هي قمة التهديد والوعيد ، ولا تبقي لعاقل مبهماً من القول ، أو شروداً في الذهن ، وقد وضحت بلا

غموض البعد السحيق بين الذات الإِلهية الآمرة المسيطرة المهددة ، وبين الذات المحمدية البسيطة المنفذة . . . ولا بأس أن نتصفح هذه الآيات :

﴿ ليس عليك هداهم ﴾

﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إِن كيدي متين ﴾ [القلم :] .

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ [الزمر : ٩٦] .

﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . . . ﴾ .

﴿ قل إِنما أنا بشر مثلكم يوحى إِليَّ أنما إِلهكم إِله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

أما تبصر في هذه الآيات السالفة الذكر ، الدور الوحيد للرسول والهدف من رسالته والقدرة التي يملكها . . . أنه الرسول الذي يمثل دور النذير البشير . . .

وهاكم نمط آخر في القرآن . . . يدلنا على اختلاف

الصفتين . . . عناية ووعود لهذا الإنسان ؛ وهل يعقل أن يعد الإنسان نفسه في كتاب مسطر بيمينه كما يقول الأفاكون . . .

ففي قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إِنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : ١٤٦] .

﴿ إِنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : ٥٢] .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . . ﴾ .

﴿ وإِذ يعدكم الله إِحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . . . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال : ٧] .

وأعد النظر في هذه الآيات التأديبية التوجيهية التي يتلقاها الرسول من السماء : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيْ وما من حسابك عليهم من شيْ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ [الكهف : ٢٨] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وإِن كان كبر عليك إِعراضهم فإِن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

وفي قوله : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ .

وفي النهاية بعد أن كشفنا الفرق البيِّن بين الذات الإِلهية والشخصية المحمدية ، لا بأس أن نوجه النداء إلى كل منصف أن يبحث في هذا الكتاب ولو مرة واحدة ، لأن أكثر بل جميع المناهضين له ، أقول وبصراحة ، لم يقرؤوه ولا مرة واحدة ، فكيف تنكر ما تجهل فقد قيل : (إن الإنسان عدو ما يجهل) .

فالمتابع لقراءة القرآن يرى صفة الرسول المتلقي للوحي ، الداعي لما أمر به : ﴿ قل إِنما أنا بشر مثلكم يوحى إِليَّ أنما إِلهكم إِله واحد . . . ﴾ .

ولو كان أمراً فيه غموض ، لأبصرنا الاندماج بين الشخصية المحمدية والذات الإِلهية وما قال بهذا أحد من العالمين إِلا

مستشرق معرض ، أو أفاك مزور ، أو مأفون الفكر ، مشبوه الهدف ولذا قال كفار قريش إِبان البعثة وهم المتضلعون باللغة ومجازاتها وبلاغتها ويعرفون إلى أيهم ترجع الضمائر ويفهمون لغة التخاطب . . . على الرغم من ذلك لم يستطيعوا أن يقولوا أبداً أن هذا الكلام من عند محمد . . . بل قالوا إِنما يعلمه بشر . . . لكي يتجنبوا الحقيقة والإقرار بالنبوة وبالتالي سيتطلب منهم الخضوع لهذا الرسول وفي هذا ضياع لسيادتهم المزعومة ، وهدر لمكانتهم بين قومهم ، فالباحث المنصف يجد إِذن الفرق الشاسع ، والبون الواضح بين الرسول المرشد ، المبلغ ، المنذر ، المبشر ، وبين الذات الإِلهية ذات القدرة الفعالة المحققة لكل وعد وعدت به . . .

وقيل إِن هذه التقريعات خرجت من ذاته ، بعد ندم ووخز ضمير ، ونستطيع الرد على من قال ذلك : فلو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عنه معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من أمره ، لما كان ليعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع والتقريع ؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه ، واستبقاء لحرمة آرائه ، بل إِن هذا القرآن لو كان يفيض من وجدانه ، لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك كما يفعل الكثير من الشعراء والأدباء . . . وخاصة وهو بحاجة إلى إظهار نفسه بمظهر الكامل المتكامل الذي لا يعتريه النقص ، بل عليه أن يظهر نفسه أنه مصدر لكل كمال ، وموئل العصمة بلا منازع ولكنه لو كان كاتماً ،

لكتم أمثال هذه الآيات فإنه الوحي فلا يستطيع كتمانه والوحي هو القائل :

﴿ إِن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات من بعد ما جاءهم الهدى أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . . . ﴾ [التكوير : ٢٤] .

وعلينا أن نتدبر هذه الآية في نهاية بحثنا :

﴿ والضحى والليل إِذا سجى ، ما ودَّعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

وفي هذه الآية عبرة لأولي الأبصار :

﴿ ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإِن مع العسر يسراً إِن مع العسر يسراً فإِذا فرغت فانصب وإِلى ربك فارغب ﴾ .

الدليل الرابع
هل كان للرسول معلم ؟

افترضت طائفة من قريش وجود معلم من البشر لرسول الله ، وقال بعضهم : غلام رومي أعجمي نصراني ، يشتغل في مكة قيناً (حداداً) يصنع السيوف ، وكان الغلام رغم عاميته ملماً بالقراءة والكتابة ، ولربما وقف محمد ذات مرة أمام حانوته فقالوا هذا هو معلمه وقالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ .

وبعد فترة وجدوا في هذا هزءاً من أنفسهم ، ومن شعرائهم ومن كبريائهم ، فرفعوا الاتهام إلى مستوى آخر ، قالوا ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ علماً بأنهم مجمعون على أميته بلا خلاف بينهم . . .

وقال المستشرقون : إن الراهب بحيرا كان يعلم الرسول وهو من أتباع الأريوسين الموحدين ـ علماً بأن الرسول قد لقيه في طفولته خلال سفرته مع عمه أبي طالب. ولا بأس أن نناقش هذا الموضوع الخطير لنتعرف مصدر الرسالة ، ولنرد على فرضيات قريش ومن يتابعون هذه الافتراضات في عصرنا الحاضر ، لأنه إن ثبت بطلان الصلة مع الغلام الرومي ومع الراهب بحيرا تأكد

مصدر القرآن بأنه من الوحي . .

فالذي زعم أنه كان للرسول معلم !.. نقول له ، قل لنا ما اسم هذا المعلم ؟ ومن ذا رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ فإن كلمة بشر تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ويراهم الناس غادين ورائحين ، فلا نسمع دعواهم بدون تحديد وتعيين ، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم ، فيقال لهم كما قيل لهم : قل سموهم أم تنبئونه بما يعلم في الأرض أم بظاهر من القول . . أما كان يجدر بكفار قريش أن يراقبوا محمداً وهو فيهم وبينهم ، ولا يبتعد عن ديارهم ، يجمعون الناس على إثبات دعواهم . . وهذا لعمري هو الإفك العظيم . . بل نقول : هل ولد الرسول في المريخ ، أم نشأ في مكان قصي عن العالم ، فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ثم كان لا يرونه بعد ذلك إلا لماماً ؟ ألم يولد في حجرهم ؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم ، يصبحهم ويمسيهم ؟.. ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله وصباحه ومسائه . . ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ نعم إن قومه قد سوغت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ليدرؤوا بها عن أنفسهم الجدال الطويل ، فقالوا إنما يعلمه بشر . . ترى هل هم جادون في هذه التهمة ، وهل يتهمونه بالتعلم من بشر ، له تلك المنزلة العلمية التي يستحق بها مكانة الأستاذية

لمحمد . . ؟! . .

كلا إِنهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين ، وإنما كان همهم أن يدرؤوا عن أنفسهم معرة السكوت والافحام ، بأي صورة تتفق لهم من صورة الكلام بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو بالهزل . . .

ولتطرح المسألة على بساط البحث مَن الرجل الذي زعموا أنه يعلم محمداً ، ترى هل نظنهم قد نسبوا ذلك إلى رجل منهم ؟ لا . . . فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا ولا آباؤهم .

أم تحسبهم قد نسبوا ذلك إلى معلم في المدينة المنورة ، أو في بلاد الشام وذلك بسبب إقفار العلم والمعرفة في مكة ـ وقد سار بعض الملحدين على المنوال نفسه وكرروا ما قالت قريش بدعواها بوجود معلم لمحمد ومنهم من بحث الموضوع وتاه في التواءات المعرفة ومنهم من لم يكترث بهذا الموضوع ـ ثم وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان :

أولهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لترويج دعوى أنه يلاقيه ويملي عليه بكرة وأصيلاً .

وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إِن عنده علم ما لم يعلموا ؛ وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها عند

حداد . . إنه حداد رومي . . نعم وجدوا في مكة غلاماً بسيطاً لم يكن أمياً ، ولا وثنياً مثلهم بل كان نصرانياً ، يقرأ ويكتب فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد وبالتالي أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمع . . ولئن سألتهم : هل كان هذا لهذا الغلام الوقت الكافي لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ، ورد متشابهها إلى محكمها ؟ وهل كان مزوداً في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم ؟ لعرفت الجواب ، إنه غلام حداد منهمك في مطرقته وسندانه ، وإنه كان عامي الفؤاد ، لا يعلم الكتاب إلا أماني ، أعجمي اللسان ، لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ، ولا أحد من قومه . ولكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقبه الأستاذية التي منحوه إياها على رغم أنف الحاسدين !! . .

علماً بأن البلغاء من قريش لم يستطيعوا مضاهاة القرآن كما مر معنا في بحث المعجزة الكبرى وهكذا ضاقت بهم دائرة الجد ، فما وسعهم إلا فضاء الهزل ، وهكذا أمضوا في هزلهم ، حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكأن مثلهم كمثل من يقول : إن العلم يستقي من الجهل ، وإن الإنسان يتعلم كلامه الأديب من الببغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

ولقد رأوا في هذا الأسلوب ، من حلاوة الفكاهة ، والملحة مايسيغ حرارة الزور والباطل ، ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفي صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم وقد قص القرآن هذا بقوله :

﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً . . . ﴾ ثم يجيب ويخفف عن الرسول بقوله :

﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . . ﴾ .

ولكنهم ما دروا أن في طي هذه السخرية سخرية بقولهم : وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم وعلى مر العصور أنهم كانوا أجهل الأمم وأبعد الأمم عن المحاكمة المنطقية تجاه المصلحين . . والغريب كل الغرابة أن يقال : غلام سوقي غريب عنده من العلم ما ليس عندهم ، ولا يمكن لهم أن يأتوا بكلام شبيه له ، فياله من نطق ، كان العي في موضعه خيراً لهم وأستر عليهم ، وياله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به كرامتهم ومكانتهم وأنفسهم من حيث لا يشعرون . .

ويا ليت شعري أنى لهذا الغلام أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا أن يصفوه ، فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم ؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس

دائه ، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدي للعالم صفحته فينال في التاريخ شرف الأستاذية ، أو يتولى بنفسه تلك المكانة العالية ؟ وإننا لنعجب من رجل أوجد بحثاً ثم لا يتلفظ بأنه له . . فكيف بمن أوجد فكرة متكاملة وعقيدة شاملة . . ؟!

وأما من قال بأن معلمه كان بحيرة الراهب فعلينا أن نتعرف فترات اللقاء بينه وبين محمد الرسول . . فإن أمر لقائه معه كان واحداً لا ثاني له ، ولم يكن مستوراً ، بل كان معه أناس . . . فعندما سافر في المرة الأولى إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب ، كان لفترة قصيرة وقد حدثنا التاريخ الذي سجل سيرة محمد . . ما حدث وما جرى في هذا اللقاء . . وهل يعقل أن رسول الله جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته !! ولماذا انتظر منذ صغره حتى الأربعين ولم يصرح بأمره . . ولماذا لم يدع إلى هذه الرسالة بحيرة الراهب بذاته ؟ . . ولماذا لم يتخذ خصومه من قريش هذه الحجة مع شدة سعيهم في هدم دعواه والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبهم ، وقد كان هذا السلاح ، أقرب إليهم ، وكان وحده ـ لو كان حقيقياً ـ أمضى في إبطال كل ما لجؤوا إليه من مهاترة ومكابرة . . . وإن سكوت أهل قريش عن ذلك ، وسكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده . لأنه ليس من الهنات الهينات التي يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد . على أن التاريخ لم يسكت بل

نبأنا بما كان من أمر اللقاء بين الراهب بحيرة والرسول ﷺ ولقد حدثنا التاريخ عن راهب الشام قائلاً : إنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه سمات النبوة الأخيرة وحليتها في الكتب الماضية مما أنطقه بالبشرى إلى عمه قائلاً له : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم وهكذا أثبت لنا التاريخ وحق لنا القول : بأن من عرف للتاريخ حرمته ، وآمن بوقائعه كما هي ، كانت هذه الوقائع رداً على كل زعم باطل ، وكل فكرة لا دليل لها . .

وهذه وقائع التاريخ كلها تشهد كذب التخرصات الملفقة في هذه الحادثة التي ما جاءت إلا بافتراءات مدحوضة لمستشرق حديث . . أراد أن ينبش القبور لعله يجد مطعناً لهذه الشريعة الغراء[1] . .

ومن قائل يقول إن التاريخ قد كتبه المسلمون ونقحوه ، وتركوا كل ما يناقض عقيدتهم والجواب على ذلك بسيط . أما كان الغزل يناقض العقيدة ، أما وجد له من ينقله ويحفظه وكذلك العصبيات القبلية أما تخالف الشريعة ، أما وجد من يتبناها ويدافع عنها حتى عصرنا الحاضر . . ولا عجب أن يكون في عصرهم منافقون

---

(١) صَدَرَ كتابان حول هذا الموضوع وهما (قس ونبي) لأبي موسى الَحريري وكتاب (الإسلام بدعة نصرانية) لإلياس المر وسنقوم بالرد عليهما بكتاب مستقل إن شاء الله تعالى .

ومسيحيون ويهود . . لماذا لم ينقلوا هذه الفكرة . بل تجد أول من قال ذلك المستشرقون الجدد . . بعد أن أذهلتهم الحجج وضاقت عليهم البراهين ، وضاعوا في المبادئ والقيم السامية التي وجدوها في القرآن . . . فلم يستطيعوا الرد إلا بهذا الإفك الذي لا يصدقه إلا مخبول ، معجب بهم ، مأفون بالباطل . . . وأقوله ، ولنتساءل : لماذا لم يدَّع بحيرة بذاته هذه الدعوى . . . وهل يعقل لرجل عنده هذه الأفكار والآراء العالمية ، ثم يتركها لتنسب إلى غيره . ونحن نرى أن الكثير من الأدباء والمؤلفين ينتحلون أسماء كتب ليس لهم إِما ترجمة أو تنقيحاً . . ثم يدعون أن هذا الكتاب أو ذاك من بنات أفكارهم . .

ونستطيع القول بأن محمداً جاء بأفكار تناقض المسيحية واليهودية وهل يعقل لبحيرة القبول بعرض آراء تناقض عقيدته التي مات عليها وحاول القرآن كذلك أن يصحح الأخطاء التي كانت عند اليهود والنصارى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إِنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ﴾ . .

ويقول الأستاذ أمستاسي هايدون في كتابه (تراجم الأرباب) (إن وحدانية الله في الإسلام لم يسبقها مثيل لها في صفة الوحدانية التي لا هوادة فيها ولا في غيرها من جملة الصفات المستفادة من

أسماء الله الحسنى) ، وهو من كبار علماء مقارنة الأديان ، فأنى لبحيرة بهذه العقيدة الشاملة الموحدة ، التي لا مثيل لها في تاريخ الأديان . . ؟؟ . .

علماً بأن محمداً لم يطلع على الكتب الدينية السابقة . ويقول المؤرخ ر . ف . بودلي « إن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والحديث ظهرت بعد موت محمد بقرون » .

ونستطيع التساؤل : هل كان في العلماء والحكماء يومئذ من يصلح أن يكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية والذات المعلمة ؟ . .

ويقول الملحدون « إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل »[1] .

وهذه كلمة حق في حدود معناها الصحيح فنحن سنأخذها باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثالاً واضحاً لعلماء عصره فليقرأوا (الزهراوين البقرة وآل عمران) وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتاريخ والأحكام ، أو ليقرأوا ما شاءوا من السورة المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأي لسان

---

(١) النبأ العظيم ص٥١ .

يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات . وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات . . فإن أنت أحببت زيادة بيان ، فإليك نموذجاً من وصفه وتفنيده لأغلاطهم ومغالطاتهم التاريخية ﴿ يا أهل الكتاب لمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ [آل عمران : ٦٥] .

﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] .

ويقول في كيفية إنكار المشركين للمثل الذي ضرب بالمسيح عليه السلام ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خيراً أم هو ﴾ ؟! . . [الزخرف : ٥٧] .

فهل يعقل لأشخاص كانوا تائهين في دياجير الظلام ، وعقابيل الضلال أن يصبحوا أساتذة لرجل تخلى عن كل فكرة لديهم ولم تظهر عندهم مقدمات التصحيح في أفكارهم وعقيدتهم . ومن هو بحيرة في التاريخ لو لم يكلم عم رسول الله . إنه واحد من الذين طوتهم الأيام . . ثم هناك فكرة أخرى كانت مستشرية عند النصارى وهي احتكار العلم عند الرهبان ومنهم بحيرة فكانوا لا يعلمون الناس ما تعلموه إلا بعد مشقة وعذاب وخدمة لهم . . . وهذا ما يرد على افترائهم . . . فكيف لا يعطي علومه للكبار العاقلين ثم

يعطي علومه لطفل صغير اجتمع به مصادفة . . ثم يعطيه لغة جامعة للهجات العرب مجتمعة ، لأن القرآن قد جمع في طياته ألفاظاً من لغات عدة ولهجات متناثرة ولذا قال الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات العشر « إن القرآن فيه أربعون لغة عربية عدّد منها قريش وهذيل وكنانة . . . » فأنى للراهب أن يكتب في لغة هؤلاء جميعاً من عند نفسه ، وأنى لمحمد العربي الأصيل أن يأتي بهذه اللهجات الكثيرة المتنوعة ، وما هذا إلا دليل على القدرة الإلهية الجامعة لهذه اللهجات والألفاظ ، ومن قال بأن هذا القرآن من صنع بشر ، أو بتلقين راهب أو بتعليم غلام ، إنه لعمري هو المنطق الملتوي الذي لا يعتمد إلا على عناد وضلال عميق الجذور ، لا يريد صاحبه الرضى بالحق ولا بالأدلة المنطقية . . . وما هو إلا حاقد مأفون أو مكابر جهول ، أو متعصب أعمى وعلى عقله غشاوة . . .

وبعد هذا كله لا يسعنا إلا القول بأن هذا العلم الجديد الذي جاء به محمد وليد لعلم جديد ومهما حاول المكابرون أن يصفوا الافتراءات ويشككوا فلن يفلحوا لأن الشمس ساطعة ونورها مبين وإن هذا القرآن لهو الدليل القاطع على أن التعليم صادر من قوة ليست من قوى البشر بل هي أعلم وأعلى وأشمل إنها قوة الله جل وعلا . . .

ويبقى سؤال أخير : هل كانت العقيدة منبثقة من ذات محمد ؟

إن الإنسان بفطرته إذا أبدى فكرة لا ينسبها إلى غيره بل يصرح وينادي بها لنفسه ، وما كان محمد في هذه السيرة خلال دعوته إلا مبلغاً ورسولاً أميناً ، وقدوة عملية للفكرة التي نادى بها . . . إن محمداً لم يهجم على الإيمان هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق وجزع حتى اطمأن وما كانت هذه العقيدة التي آمن بها إلا نوراً شع من السماء إلى الأرض فأمد الإنسانية بالمنهج الكامل وقال تعالى مبيناً مصدر هذا النهج القويم :

﴿ علَّمه شديد القوي ذو مرة فاستوى ﴾ وإن النفس البشرية عندما تقترب من معين القرآن تشعر بصفائها وعروجها إلى مدارك الكمال وتتيقن بسمو مصدره وتؤمن بأنه تنزيل حليم خبير . . ولا بأس أن يتصفح القارئ هذه الآيات ليلمح القدرة الناطقة ، والقوى الفعالة في هذا الكون :

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي

تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : ٥٧ ـ ٧٤] .

ولقد تفتقت قرائح تنادي بأن الإسلام بدعة نصرانية وصدر هذا الكتاب لمؤلف حاقد هو إلياس المر أراد أن يثبت خلال بحثه أن ورقة بن نوفل هو الذي علم محمداً ﷺ التوراة والإنجيل وتم اتفاق بين خديجه وورقة ومحمد ﷺ على إظهار هذه المسرحية (النبوءة) فقام وأعلن هذا الدين الجديد وبمحاولة يائسة واضطراب فكري يظهر النقاط المشتركة في القصص الموجودة في التوراة والإنجيل فيقول (إن القرآن أورد قصص الأنبياء الأولين كما أوردتها التوراة فلا زيادة منها ولا نقص إلا في الأشياء البسيطة التي لا تؤثر في جوهر الدين اليهودي . . .

إن الكتب السماوية كلها من عند الله عز وجل وما جاء الرسل إلا متتابعين حتى تصل الإنسانية إلى مرتبة النضج العقلي لفهم الوحي واستيعاب محتواه والتفاعل معه بفكر تجريدي راقٍ وهذا هو الإسلام الذي هو نهاية مطاف تسلسل الأنبياء .

فالتشابه في قصص الأنبياء ما هو إلا دليل قطعي على صدق نبوة محمد ﷺ ، وصدق الوحي ، وهو الدليل الموثق لصدق

القرآن في سرده لهذه القصص التاريخية الخالدة للصراع بين الحق والباطل .

وأروع جواب أورده الكونت دي كاستري في كتاب محمد رسول الله لآرتيين دينيه قال أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد ، وصل إلى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل . إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقه ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته)[١] .

وما أورده موريس بوكاي في كتابه الإنجيل والتوراة والقرآن على ضوء المعارف الحديثة من دراسة تحليلية للكتب المقدسة وعدم توافقها مع المعارف العلمية ، وتناقض بعض آياتها مع بعض لدليل قاطع على أن القرآن له استقلالية تامة عن الكتب المقدسة المنسوخة بما قدم من أدلة علمية حديثه متوافقة مع المعارف العلمية ولم يتناقض معها . بل توافق مع العلوم الحديثة بشكل رائع .

والمتتبع لسيرة الأنبياء في التوراة يجدها في افتراق بين كقصة داود عليه السلام في الإصحاح ١٥ عن ذكر قتل قائده أوريا ليأخذ

---

(١) من كتاب محمد رسول الله لآرتين دينيه .

زوجته منه .

أمّا ما ورد في القرآن فأنبياء بني إسرائيل لهم في التوراة ذكر يتناقض مع ما جاء في القرآن وما جاء به محمد رسول الله ﷺ للعالمين لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوماً على قوم .

إنه صوت النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الأرض ، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلاً عن قومه ، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً ، لا ينتفع بعقله .

إنه صوت النبوة الذي يقول إنني بشر مثلكم وأنا إنسان كسائر الناس وما أنا إلا بشير ونذير فأي استقاء ، وأي تأثر ، وأي مصدر يستطيع أن يولد فيه هذه العقيدة الجديدة التي تتناقض مع الكثير من تلك الأفكار المتناثرة في التوراة والإنجيل .

إنه نداء متفرد في تاريخ الأديان ، إنها النبوة الخاتمة للنبوءات والناسخة لكل العقائد والأديان بعد نضج العقل ، وسمو النفس وتنامي الحضارة ليرتقي بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال بفكر تجريدي واعٍ .

الدليل الخامس
العصمة من القتل

بعد بحث طويل عن تبيان مصدر القرآن ، رأينا أن القرآن وعد محمداً وعوداً كثيرة واستطاع تنفيذها لأنها صادرة عن قوة فعالة وأعظم هذه الوعود ، هذا الوعد الخطير وهو العصمة من القتل ، والحماية لشخصية الرسول ، على الرغم من تضافر الحوادث المبيتة لهدر دمه ونرى القرآن بعده قائلاً ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إِليك مِنْ ربك وإِن لم تفعل فما بلَّغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[1] .

إِن هذا وايم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه ، فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة ، وهم في مواكبهم ، يحيط بهم الجند والأعوان ، ولكن انظر مدى ثقة الرسول بهذا الوعد : « روى الترمذي والحاكم عن عائشة قال : كان النبي يُحرَس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » وحقاً لقد عصمه الله منهم في أكثر

---

(١) المائدة/ ١٧ .

من خمسة مواضع كان خطر الموت أقرب إِليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

ومن ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال : كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل النبي تحت شجرة ، وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل من المشركين ، فأخذ السيف ، فاخترطه وقال للنبي ﷺ : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك ، ضع السيف ، فوضعه . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف .

ومن ذلك هجرته بعد اتفاق القرشيين لقتله ، وإِجماعهم على ذلك ، وبدأ التخطيط ولكن العصمة حالت بينهم وبينه فقال ابن إِسحٰق :

لما رأت قريش أن رسول الله قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إِليهم ، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا من خروج رسول الله ﷺ ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه .

فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم . . .

أيحبسونه في الحديد ويغلقون عليه باباً ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء . . . ؟ ولكن هذا الرأي لم يلق سميعاً ، فقد خافوا أن يأتي إِليه أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فيخلصوه وينتزعوه من بين أيديهم . . . أيخرجونه من ديارهم ثم يتركونه يذهب حيث شاء . . . ؟ ولكن هذا الرأي كذلك لم يلق أذناً صاغية ، فقد خافوا حلاوة منطقه ، وسحر بيانه وقدرته على اجتذاب القلوب مما يجعل له أنصاراً في كل مكان يذهب إليه ، فينتشر أمره ويشتد ساعده ، ثم يكون هو ومن يناصره قوة تهدد أمنهم وطمأنينتهم . . . أيقتلونه . . . ؟ ولكن كيف يقتلونه وقد أحاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه ؟ ومن أي قبيلة يمكن أن يكون القاتل ؟ وأي قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بني عبد مناف ؟ وما زالوا يقدرون ويدبرون ، ويتبادلون وجوه الرأي فيما بينهم حتى اتفقوا على أن يقتلوه بطريقة مأمونة العاقبة . ذلك أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلداً شجاعاً ثم يذهبوا إليه فيضربوه جميعاً بسيوفهم ـ ضربة واحدة ـ فيقتلوه ، فيتفرق بذلك دمه في القبائل كلها ، وإذن لا يستطيع بنو هاشم أن يقاتلوا العرب جميعاً ، فيرضون بالدية ، فيؤدونها إليهم . وبذلك ينتهي أمر محمد ودينه ، وتعود مكة إلى ما كانت عليه من الأمن والطمأنينة وجمع الشمل .

وهكذا دبروا الخطة ورسموا خطوطها ، على أن ينفذوها ليلاً ، ولكن لله تدبيراً فوق تدبيرهم ويداً فوق أيديهم ، فقد أوحى

الله إلى رسوله بما دبروا خفية ، وأعلمه بما كادوا له من كيد ، وأذن له بالهجرة إلى المدينة ، وعرف وقدر أن قريشاً ستوثق الحصار حول داره في الليل ، لتقطع عليه طريق الفرار ، ولا بد أنها سترصد أفواه الطرق ، ومنافذ السير حتى لا يستطيع الخروج من مكة ، وستبذل لتنفيذ خطتها كل جهودها ، وخرج ليلاً بعد أن وضع ابن عمه علياً رضي الله عنه في فراشه تمويهاً للعدو ، وليعطي الناس بقية الودائع التي كانت لأهل قريش ، وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على مكانته من قومه وعظم أمانته .

وهكذا تمت الهجرة ، وفتيان قريش يرصدون دار رسول الله ليقتلوه عند خروجه ، فليس من عادة العرب أن يقتلوا شخصاً في عقر داره ، وتمت العصمة للرسول من القتل ونزلت الآية التي تصف هذه المؤامرة التي أحيكت حول رسول الله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإِذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال :] .

وكان خروجه في وسط الليل ، والليل مخيم على الفتية الشباب بأستاره . وهذا ما بينه القرآن في قوله : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ [يس : ٧] .

وانطلق رسول الله إلى الغار عاملاً بالأسباب ، ليرشد البشرية

من بعده إلى قيمتها . . . وشاهد الكفار الغار ، ولكن العصمة لاحقته هناك ، فلم يدخلوا إليه على الرغم من وصولهم إلى بابه ، وهنا نرى ثبات رسول الله واطمئنانه ، وكيف أن السكينة قد غمرته ، واليقين ملأ قلبه ، وأحاطه الهدوء من كل جانب ، وكل هذا يدل على مقدار ثقته ويقينه بالعقيدة التي يناضل من أجل تبليغها . . .

ومما يروى أن فتيان قريش لما وصلوا إلى الغار ، وسمع أبو بكر ـ صاحبه في السفر ـ دبيب أقدامهم إزاءه ، اشتد خوف أبي بكر . . . لا على نفسه ولكن على رسول الله . . . حتى بكى . . . فقال يا رسول الله : لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا . . . !! فهدَّأ رسول الله من روع أبي بكر وقال له : لا تحزن إن الله معنا . . . ما ظنك في اثنين الله ثالثهما[1] . . .

ونزلت الآية تفصل هذه المحاورة اللطيفة في قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة

---

(١) اليقين الذي تمكن من قلبه الكبير ، وإيمانه بالعصمة دعاه لقوله لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ومعية الله كانت الحجاب للكفار الذين وصلوا إلى الغار وهي معية الحفظ والطمأنينة . والله يرىٰ ولا يُرىٰ ومعية الله لمحمد ﷺ حجبت الكفار عن رؤيته .

الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهذا كله ليدل على عمق اليقين لدى رسول الله ، وهل من المنطق السليم أن يختلق الإنسان فكرة ، ثم يصرح بها لحماية نفسه ، ويصدر الآيات بالعصمة لذاته . وأيم الله لو كان محمد مختلقاً ذلك لشدد الحماية على نفسه ، ولطلب من أتباعه بآيات كثيرة أن يدافعوا عنه أكثر من دفاعهم عن عقيدتهم ، بل ثبت أن القرآن صرح بأن محمداً ما هو إِلا رسول فإِن مات أو قتل فإِن الله حي باق وأنى لإِنسان يستطيع تعظيم ذاته ثم يهون من أمر نفسه ، ولا تهمه حياته ، بل يأمر الناس بأن يتركوا حراسته ، وهذا عكس ما نشاهده من المصلحين أصحاب العقائد الوضعية ، فهم يحاولون الإِكثار من الحرس حفاظاً على حياتهم وأنفسهم . . .

ومن حوادث العصمة هذه الحادثة التي يرويها الثقات « وهي أن أبا جهل ـ وهو من أشد خصوم رسول الله ـ قال : يا معشر قريش إِن محمداً قد أبى ما ترون من عيبه ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وإِني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإِذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !! . . قالوا : والله لا نسلمك لشيءأبداً ، فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله

ينتظره ، وغدا محمد كما كان يغدو كل يوم ، فكان إذا صلى ، صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وقام محمد لصلاته ، وقد غدت قريش ، فجلسوا في أنديتهم ، ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه ، رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه ، عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (القصرة أصل العنق يعني بذلك ضخامة رقبته وطولها) ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي يريد أن يأكلني . . . !!

فقال ابن اسحق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه) .

وأيم الله هذا دليل آخر من أشد رجل حاقد على دعوة محمد ، دليل من أنصع الدلائل على أن الحق الذي جاء به محمد ليس من عنده ، وإنما هناك يد خارجية ، وقوة إلهية فوق قوته تدافع عنه ، وتحميه ، وإلا كيف نفسر هذه الحادثة الموثوقة ، التي جرت في ربوع قريش . وصار بعد ذلك أبو جهل مهان المكانة ، ضعيف

القيمة ، واتهم بالجبن والتردد ، ولو قيل إن هذا ليس صحيحاً فمن منعه من ضرب محمد . .؟ أما كان أشد الحاقدين عليه حتى إنه قال : لقد سقيت بغضاً لابن عبد المطلب لو سلط البحر عليه ما أطفأه . . من منعه إذن من قتل رسول الله . . . إن لم تكن العصمة . . . فليجب المكابر الذي لا يرضى بهذه الحادثة . . . إن كان لديه جواب مقنع .

ومن محاولات اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما حاكه اليهود ضده في المدينة من مؤامرات للتخلص منه من أجل مصالحهم وزعامتهم ، ومما يروى (أن رسول الله خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر . . . للجوار الذي كان رسول الله قد عقده لهما وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله يستعين في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جماش ـ أحدهم ـ فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فجاءه الخبر من السماء بما دبر القوم ، فقام وخرج إلى المدينة ؛ فلما استلبث النبي أصحابه ،

قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب الرسول حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به ، فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم) .

وهكذا هم اليهود بالجريمة المنكرة دون أن يظهروا له شيئاً ، وكل ذلك أثناء محادثته لهم ولكن العصمة . . . العصمة ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ . وإن هذا الإنسان الذي لم يأت بخير من وجدانه ولا بإصلاح فردي وإنما جاء مرسلاً بعقيدة شاملة يحمل في طياتها الوعد بحمايته وقد تم له ذلك ، ولو كانت فردية بشرية لما استطاعت حمايته .

وهذه المحاولة الأخيرة التي تمت فى معركة أحد ، ها هو ذا يقاتل أقرب الناس إلى العدو والموت قريب من الجميع ، وما جرت هذه المعركة إلا للخلاص من محمد ، وكان علي رضي الله عنه يقول : كنا إذا حمي الوطيس احتمينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . إن هذا هو اليقين لأنه واثق بأن العصمة والتأييد أتت من خالق الموت والحياة ممن بيده مقاليد الكون . .

وها هو في غزوة حنين ، يركض ببغلته إلى جهة العدو ، فلما أقبل المشركون وأحاطوا به لم ينهزم بل نزل عن بغلته وأخذ يقاتل وكأنه يعرض نفسه لنبالهم وأخذ يصيح : أنا النبي لا كذب أنا ابن

عبد المطلب . (حديث رواه الشيخان) .

فيالها من حياة ملؤها المخاطر ، ولكن وصل إِلى شاطئ السلام ، وحقق الله له وعده وعصمه حتى يبلغ الرسالة ، ويؤدي الأمانة ، وينطق كلمة الكمال .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

وليعلن للبشرية بأن الإسلام هو الدين الحق وخاتمة الشرائع . .

ولا بأس أن نختم هذا الفصل بهذه الحادثة الرائعة وهي أنه بعد وفاة عمه أبي طالب دخل إِلى البيت الحرام فنثر بعض القرشيين التراب على رأسه ، ومن ثم دخل الرسول بيته والتراب على رأسه ، فقامت إِليه إِحدى بناته تغسل التراب وهي تبكي !! . . . فقال لها : يا بنية لا تبكي ، فإن الله مانع أباك . . .

وايم الله ما يقول هذه الكلمة إِلا نبي مرسل ، وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد التاريخ في الدنيا ، فكلمته هي الإيمان والثقة لأنه يتكلم عن يقين .

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إِلا وحي يوحى ﴾ .

الدليل السادس
المغيبات والرسول

إن القارئ المتفحص للحقيقة في القرآن ، يلمح أخباراً تاريخية قديمة وحديثة ، وقد ظهرت تلك الأنباء بشكل واضح جلي مفصل ، وبنظرة خاطفة لمجموعة هذه الأخبار الماضية ، ترى واقعيتها ، وكأنها مشاهدة . علماً بأن التاريخ لم يكن واضحاً معلوماً ، فهل كان محمد آنذاك بحيث يرى المعطيات التاريخية رأي العين ليصفها كما شاهدها ، أو كانت لديه الآثار الكافية ليصف تلك الحوادث ، أو هو تصور شاعر ذي خيال خصب ، أو ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها !!

فلا نقول : إن معرفة بعض أسماء الأنبياء ، والأمم الماضية ، ومعرفة مجمل ما جرى من حوادث على أقوام عاد وثمود ، هو العجيب أن يعرفه هذا الرجل العربي الأصيل ، بل كان هذا معروفاً عند البدو والحضر ، ولكننا ننظر إلى هذه التفاصيل الدقيقة ، والكنوز الدفينة في بطون الكتب ، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين العرب ، وما محمد إلا رجل منهم ، فاقرأ ما كتب

في التوراة والإنجيل عن أهل الكهف ومدة نومهم تجد : أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، وهذه السنون التسع هي فرق السنين الشمسية والقمرية ، فانظر إلى هذا الحساب الدقيق عن رجل أمي لا يكتب ولا يحسب فأنى له ذلك ؟

نعم إنها لعجيبة حقاً ! رجل أمي بين أظهر قوم أميين ، يحضر مجالسهم ـ في غير الباطل والفجور ـ ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وعياله ، راعياً بالأجر ، أو تاجراً بالأجر لا صلة له بالعلم ، ولا بالعلماء يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ، ثم يطلع علينا بين عشية وضحاها ، فيكلم الناس بما لا عهد لهم به ، في سالف حياته وبما لم يحدث به أحداً قبل ذلك . . ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم . . . ولو كان يدرس متدرجاً منذ يفاعة سنه لظهر هذا في سمات واضحة عبر مقدمات حياته ، ولعرف في هذا بين عشيرته التي ترتقب كل جيد وترمي بعيونها كل غاد ورائح ، وترمق ببصرها كل حركة ولقاء وبحث . . .

فهل لعاقل منصف أن يقر بصدور هذه المجموعة من الأخبار من رجل عاش طيلة حياته في مكة بين وديانها راعياً ، وفي أميته ثاوياً ، ولا يعرف عن الأمم السالفة إلا ما يعرفه أقرانه من الأميين . . . ولا شك أن مجموعة هذه الأخبار قد جاءت من مصدر

غير ذاته ومن دائرة معارف ، دقيقة في تمحيصها ، لديها الامكانيات الكثيرة ، وذلك في عصر لا قيمة للتاريخ فيه . . .

ولا يمكن لفرد أن يصل بجهوده الفردية وفكره المتوثب إلى النتيجة التي وصل إليها رسول الله . . ونحن الآن نشاهد البعثات تلو البعثات تذهب للتحري عن موضع تاريخ أو حجر أثر فلا تصل إليه إلا بعد جهد جهيد وامكانيات ضخمة ، وقدرات عالمية . . . ولا شك أن الجاهلين الذين عارضوا محمداً في بداية دعوته ، وعللوا هذه الظاهرة العجيبة بفهم رائع ، ومنطق أسلم من تعليل الكثير من المثقفين الملحدين في عصرنا الحاضر . . .

فقالوا : إنما هي دروس أمليت عليه ، وأكب على فهمها فعلم منها ما لم يعلمه . . . ولذا جاء القرآن واصفاً جحتهم :

﴿ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ﴾[1] .

ووصفوا هذه الأنباء حسب ما يمليه حقدهم بأنها أساطير الأولين وقد وصف القرآن قولهم .

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فيه تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] .

فأجابهم الرسول على لسان القرآن .

---

(١) الأنعام/ ١٠٥ .

﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إِنه كان غفوراً رحيماً ﴾ .

وكذلك بقوله :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء : ٨٠] .

وكذلك بقوله :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : ٤٧] .

وقل لهم يا محمد :

﴿ فورب السماء والأرض إِنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ [الذاريات : ٢٥] .

ولقد صدق كفار قريش من حيث لا يشعرون بقولهم إنه درسها . . . نعم لقد درسها على جبريل واكتتبها من صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ، وبهذا علمه القرآن وأمره بإِخبارهم عن الحقيقة ، وإِنما هو بشر لا يعلم شيئاً عن الشريعة قبل الوحي ولا يعرف الحوادث بهذا التفصيل : وقال لهم :

﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم

عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [يونس : ١٦] .

إذن : كل هذه الأخبار القديمة ما هي إلا منقولة ولا سبيل للشخصية المحمدية في اختلاقها وأنى لمحمد هذا النقل الدقيق ؟ . . علماً بأن المكتبات لم تكن موجودة . . . وما دونت هذه الأخبار . . . وقد بحثنا بشكل مفصل عدم وجود معلم لرسول الله سوى الوحي . . . فلا شك بأنه المصدر الوحيد لمجموعة هذه الأخبار وفي هذه الآيات توكيد على مشاركة الوحي في نقل هذه الأخبار الماضية إليه :

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إِليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل ﴾ [هود : ٢٩] .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إِليك هذا القرآن وإِن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف : ٣] .

﴿ وما كنت لديهم إِذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾[١] .

﴿ وما كنت لديهم إِذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[٢] .

﴿وما كنت بجانب الغربي إِذ قضينا إِلى موسى الأمر ﴾[٣] .

---

(١) آل عمران/ ٢٤ .

(٢) يوسف/ ١٠٢ .

(٣) القصص/ ٤٤ .

هذه أخبار قد جاءت عن أمم ماضيه ، والعجب الأكبر هو الإخبار عما سيحصل في المستقبل وهل يعقل من رجل يحترم نفسه أن يتكلم عن المغيبات ، ومن ثم يطلب من الناس أن يصدقوه ولا يخشى أن يخيب الغيب ظنه ويتركه في كذبه ، وتنقلب عليه الظروف ، وهل يتجرأ ذو العقل أن يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف عن ضوئها بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ، ثم يصدر فيها حكمه محاطاً بكل تحفظ وحذر قائلاً (ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ، ولم يقع ما ليس في الحسبان). أما أن يبت الحكم بتاً ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات العادية فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين : إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول للناس كلاماً فيه صدق أو كذب ، ذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرافين والمنجمين . وإما رجل اتخذ عند الله عهداً ، فلن يخلف الله عهده ، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين . ولا ثالث لهما إلا رجل يروي أخباره عن واحد منهما . فأي الرجل تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام ، وما سيكون خالداً أبد الدهر ؟ ذلك وهو لم يتعاط علم العرافة والتنجيم ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم ، ولا كانت أخباره كأخبارهم

خليطاً من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ ، بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقص حرفاً واحداً مما ينبئ به .

﴿ وإِنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : ٤١] .

ولنسرد لك ها هنا بعض النبوءات القرآنية من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية . . .

١ ـ ما جاء في سورة الروم

﴿ ألّم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . . . ﴾ .

الحادثة : جرى جدال بين المسلمين والمشركين في مكة قبيل الهجرة ، فقال القرشيون سنغلبكم كما غلبت فارس الروم ، وأرادوا بذلك إِبطال زعم المسلمين بالغلبة على كفار قريش بكتاب الله الذي أنزل عليهم . . . وأجروا القياس قائلين : إننا لنرى الفرس وهم مجوس قد غلبوا الروم وهم أهل كتاب . . . فنزلت الآية لترد على قريش :

﴿ألّم غلبت الروم . . . ﴾ .

ولقد جاءت الأخبار لتعلمنا بأن النصر كائن لا محالة ، وقد

حدث في وقت بعيد عن متناول الظنون ، وذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها ، وهزمت في بلادها وكما جاء في القرآن ﴿ في أدنى الأرض ﴾ فلم يكن أحد يظن أنها ستقوم لها بعد ذلك قائمة فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر ، ولذا كذب به المشركون ، اعتقاداً منهم على قرينة الحال ، والحاضر الممزق لواقع الروم ، وهذا جعل القرشيين يتحدون المسلمين فتراهنوا على تكذيب القرآن . . وإِذ بالقرآن يؤكد هذا الوعد ويعزز هذه الأخبار بالغيب بقوله :

﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ .

إِشارة إلى أن اليوم الذي سيكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين ، وإِذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عن الناس أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم واحد . . ؟ ولذلك أكده مرة ثالثة أعظم التأكيد بقوله :

﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس بإِجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين وإِن عدم تعيين يوم النصر بالذات

في القرآن مع القدرة عليه ، لاختلاف الحساب بين الأقوام المتعددة ، فمنهم من يحسب حسب التقويم الشمسي ، ومنهم من يحسب حسب التقويم القمري ولذا تركها أقوى للحجة ، وكان يوم نصر الروم هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى(١) .

٢ ـ ومن الأخبار الغيبية المتوقعة في القرآن ، التي أخبر بها قبل وقوعها ثم حدثت بعد ذلك هذه الآية :

﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [القمر : ٤٥] .

لقد نزلت هذه الآية فتداولها المسلمون بينهم وهم مضطهدون في مكة ، وقريش تصول وتجول ، ولم يفهمها الصحابة حتى إن عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أي جمع هذا ؟ قال فلما كان يوم بدر ، رأيت رسول الله ﷺ يقولها فعرفت ذلك . . علماً بأن الآية نزلت والضعف يخيم على المسلمين في مكة ، ولا مجال للحرب ولا لالتقاء الجمع ، فأنى لمحمد أن يبشر من خلجات نفسه بهذه البشرى ، وهو لا يدري ماذا سيحل به بعد ساعات ؟ ثم أنى لعاقل أن يبشر قومه دون مشاهدة مقدمات دالة على صدق هذه البشائر . . إنه تنزيل العليم الخبير . .

---

(١) كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه الطبراني عن ابن عبّاس .

ولا بأس أن نأتي بأخبار فردية ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ .

ونزلت هذه الآية بحق الوليد بن المغيرة وهو من أشراف مكة ، لأنه حاول إصدار التهم والكيد فهدد بهذا ، وقد جاءت الأخبار الصادقة ، أنه أصيب بالسيف في أنفه يوم بدر ، وكانت ذلك علامة له يعير بها ما عاش . . كل هذه كانت غيبيات قرآنية ، ليس لمحمد فيها شيئ بل كان يؤكد دائماً ما قاله تعالى بحقه : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ [الأنعام : ٥١] .

٣ ـ وهذا شاهد رائع وهو وصف غيبي لا دخل للشخصية المحمدية فيه ، وهو عندما أتى للعمرة وردَّ في سنته وجرى صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين ووعد الله المسلمين وعداً قاطعاً . . . فهل يا ترى أخلف الله المؤمنين ما وعدهم عام الحديبية في دخول المسجد الحرام وتبديلهم الأمن بعد خوفهم ، وتحليق رؤوسهم وتقصيرها قضاء للشعيرة ، كما قال تعالى :

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ [الفتح : ٢٢] .

وبالفعل تحقق ذلك كله . . وأنى لبشر أن يلقي هذه الضمانات ويطلقها جزافاً ، إنه الوحي الصادق الذي تتكشف له حجب الغيب فيعلنها صريحة . . . !!

٤ ـ ومما ذكرنا وهو من أعجب العجب ، أن يضمن الله لنبيه حماية شخصه وعصمته من أذى الناس مع أن الراغبين في قتله كانوا يحيطون به من كل جانب؛ وقد بحثنا هذا الموضوع بشكل خاص في قوله :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإِلا تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ . . .

٥ ـ ولما اشتد الخصام بين النبي ﷺ وأهل مكة ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف : فانظر ما قاله القرآن في جواب هذا الدعاء .

﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس ، هذا عذاب أليم ﴾[١] .

فماذا جرى بعد ذلك ؟ . . لقد أصابهم القحط حتى أكلوا العظام ، وصار الرجل ينظر إِلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد[٢] ثم تتابعت الآيات .

---

(١) سورة ٤٤ الآية ١٠ .

(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود .

﴿ إِنا كاشفو العذاب قليلاً ، إِنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إِنا منتقمون ﴾ .

فالمتابع لتاريخ مكة في تلك الظروف يرى تحقق هذه النبوءات الثلاث وهي : كشف البؤس عنهم ، ثم عودتهم إلى مكرهم السَّيِّئ ؛ ثم الانتقام منهم بعد ذلك ، وقد كان ذلك كله كما جاء في الرواية الصحيحة للحديث المذكور لهذا الأمر . . . فإن قريشاً قد جاءت إلى رسول الله تستسقي وتتضرع إلى الله .

﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إِنا مؤمنون ﴾ .

فهل يستطيع رسول الله أن يتصرف في الطبيعة ويسيرها كما يشاء ويأتيهم بكل ذلك واضحاً جلياً ليهددهم . . ألم يعقل أنه إن لم يتحقق ذلك كان فيه انحطاط للرسالة التي جاء بها ، ولكنها ثقة بالمصرف لهذا الكون إنه الوحي . ونزلت بعد ذلك آيات فيها الوعد للرسول وتبيان نهاية اليهود في المدينة ، ويتبصر القارئ لها القدرة على التحقيق ، وصدق الوعد ، وعمق النظر . . انظر كيف يقول الله تعالى :

﴿ لن يضروكم إِلا أذى ، وإِن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ [آل عمران : ١١١] .

وقد جرى ذلك في الغزوات المتعددة وولوا الأدبار ولم ينصروا في معاركهم كلها ، فهزموا في معركة بني قريظة ومعركة بني

النضير . . وبني قنيقاع . . ثم يقول أيضاً في حقهم :

﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ .

٦ ـ انظر إلى هذه الآيات التي نزلت في أوقات عصيبة ، والكفر يصول ويجول والحق مهدد وإذ بالقرآن ينبئهم بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة على الأمن والاطمئنان فما هذا ؟ . . أأحلام . . ؟ وأماني . . ؟ لا بل نشاهد وعداً مؤكداً بالقسم .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ [سورة النور : ٥٥] .

ومما رواه الحاكم وصحح عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ، فنزلت الآية ﴿ وعد الله . . . ﴾ وقيل إنها نزلت (الآية) ونحن (أي الصحابة) في خوف شديد . .

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله (منكم) فبدلوا من

بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه واستخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها .

وتأمل قوله في هذه الآية ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ثم انظر إلى معناها في الآية الأخرى التي توضح معنى الصالحات :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾[1] .

فنجد في هذه الآيات قوانين عامة اجتماعية تقرر وتبين سر ما يبتلى به المؤمنون أحياناً من انتقاص أرضهم ، وتسلط الأعداء عليهم ، وذلك ضمن قانون إلهي مدبر . .

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

إنه القانون الإلهي في الحياة الاجتماعية وهو قانون غيبي قد أدركته الأمم في عصرنا ولا يمكن لأمي من أمة جاهلة أن يكشف المغيبات ، ولكنه وحي السماء الذي بيَّنه قوله تعالى :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

---

(١) الحج/ ٤٠ .

وبعد أن ناقشنا المغيبات في كتاب الله علينا أن نتحرى المغيبات في الأحاديث ولو أن الرسول لا يمكنه معرفة الغيب إلا بأمر الله عز وجل وكان يردد :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ [الكهف : ٤٠] .

وكذلك ﴿ لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير . . . ﴾ .

وقد أطلعه الله على بعض المغيبات منها :

١ ـ بشر الصحابة بأنهم سيفتحون بلاد الشام والعراق ومصر وبلاد فارس والتاريخ أثبت ذلك ، وقال الرسول ﷺ في هذا : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي فيها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسَنَة عامة .

٢ ـ لقد بشر الرسول سراقة بن مالك بارتداء لباس كسرى وسواره حين تابعه أثناء الهجرة ولم يستطع اللحاق به . . . وأخبر الرسول بأن قومه قد جعلوا فيه الدية ؛ وأعلمه عن كل ما يحاك حوله وطلب منه وثيقة أمان فبشره عند ذلك وأعطاه وثيقة الأمان ، وتحققت البشرى ولبس رداء كسرى في زمان عمر الفاروق .

٣ ـ ومن المغيبات التي تحدث عنها الرسول ووقعت ما رواه عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا

إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها . فقال إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ، قلت في نفسي فأين ديار طيِّئ الذين سعروا في البلاد ؟؟ . . ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى .

قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز !! . .[1] .

قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف البيت لا تخاف إلا الله وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز . .

يا للعجب . . كيف يتحقق ذلك ؟ وإن هذا الخبر . . إما أن يكون رؤيا وإما أن يكون راويه إنسان غير عادي . . وأما بالنسبة لصحة الخبر . . فهو صحيح موثوق لأن رواته من أصدق الرواة ولا يمكن أن نشك في رواية البخاري ، وإذا أراد الإنسان أن يكابر في الحق فلا تاريخ موثوق بعد البخاري وروايته . . وإذا وصلنا إلى صدق رواية البخاري . . . فلا يمكن أن يتحقق ذلك إلا لرسول . . . يوحى إليه . . .

٤ ـ إن التنبؤات التي أخبر بها الرسول عن العصور القادمة لواقع المسلمين لتثبت صدق نبوته ، فحديثه عن واقع المسلمين

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٤٧٧/ ٤٧٩ .

المتخلف وتمزقهم يبين ذلك بقوله : يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قالوا : أعن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ، قال : لا بل كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ويصيبكم الوهن قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت . وهذا ما شاهدناه في نهاية العصر العباسي وهجوم المغول والتتر ، وانقضاض الصليبيين على الربوع العربية والإسلامية وما نراه الآن في العقود الأولى للقرن العشرين من تكالب الاستعمار على البلاد العربية والإسلامية وقد جاء هذا شاهداً أخيراً على صدق نبوة محمد وأنه ليصف لنا واقعنا وكيف الخروج منه ويرشدنا للدواء الناجع لاستعادة قوتنا ونهضتنا .

٥ ـ ويروى أنه جاءه شخص يدعى الجارود من وفد عبد القيس فقال له : إن كنت نبياً فاخبرني عما أضمرت ، قيل إن الرسول خفق خفقة كما لو كانت سنة من النوم الخاطف ؛ ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه ـ وهذه صفته عندما كان ينزل عليه الوحي ـ ثم أجابه بما أضمر قائلاً : إِنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة ، ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مردود ولا حلف في الإسلام ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة . .

٦ ـ وفي أحد الأيام كان رسول الله ﷺ جالساً مع نسائه فإذا به

يتغير لونه ولبث فترة ثم قال كلاماً خفياً فيه شيءٌ من الحياء والمرارة ، ولا يحب أن يصرح بكل ما علم : فقال كأني بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب ثم أشار إلى عائشة واستطرد قائلاً : فإياك أن تكونيها أنت يا حميراء . . .

ولا شك أنه استكشف الغيب بشكل واضح وجلي ؛ ولكنه أشار إِلى عائشة رضي الله عنها بأسلوب أدبي ، وهذا لا يصدر إلا من نفس عالية . .

وفي الحقيقة بعد وفاة الرسول ﷺ بسنوات عديدة ، وفي خلافة علي بن أبي طالب خرجت عائشة تعارضه ونفرت من مكة إلى البصرة ، وفي طريقها عند مكان يسمى (الحوأب) نبحت الكلاب عند مرور القافلة فتطيرت عائشة وقالت : أين نحن ؟ فرد عليها محمد بن طلحة . . عند ماء الحوأب . . فصرخت وقالت : ماء الحوأب إِنا لله وإن إليه راجعون ردوني ردوني . . فقد تذكرت تلك الإشارة التي أشار لها النبي حين كان حياً وفهمت تفسيرها الآن وأرادت الانصياع لأمره وندمت على فعلتها وتصورته واقفاً أمامها يقول لها : إِياك أن تكونيها أيتها الحميراء . . فضربت بعيرها في اتجاه مكة وهي تصرخ . . أنا والله صاحبة كلاب الحوأب . .

خـ ـ وقد قص الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) أمثلة كثيرة لإخبار الرسول عن المغيبات قال : وأنذر عثمان بأن

تصيبه بلوى بعدها الجنة ، وبأن عماراً تقتله الفئة الباغية ، وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين وأخبر عليه الصلاة والسلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه . .

وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قلته . . وقال الرسول ﷺ زاجراً الأمة ، مبيناً للفرقة التي ستحصل . . لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . .

وبعد كل هذه المغيبات نرى أنها تحققت جميعاً ، وأظهر الله دينه وأيقن الجميع بصدق نبوة الرسول . . وقال تعالى :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة : ٣٣] .

وبين الله تعالى صورة الكفر التي تجمعت ضد الباطل في قوله تعالى :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إِلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

وقد أتم الله نوره وكملت الشريعة التي ارتضاها الله لعباده . . .

فانظر إلى عجيب شأن هذه النبوءات كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتاً وتأييداً ،

وكيف يكون الدهر مصدقاً لها طال أو قصر وفيما قرب وبعد . . ؟

بل انظر إلى مجمل ما في القرآن من الأخبار ترى فيها من الحوادث التي تناولت الماضي السحيق ، والمستقبل الغامض ما يكشف لنا كونها فوق حس النبي وعقله ، وهي أنباء ما كان وما سيكون ، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ ؛ وكلما حدّثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام ، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشؤون الغيب صدقته العقول السليمة وأتى البرهان ساطعاً بيناً . . !!

ثم اسأل نفسك السؤال الأخير . . أيعقل من رجل أمي أن يأتي بهذا الحديث كله من بنات أفكاره ؟ . . والجواب البدهي : أنه لا شك قد استقاه من مصدر علمي وثيق واعتمد فيه على اطلاع واسع ودرس دقيق ، ولا يمكن أن تكون هذه الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته . . وإلا أين أمثال هذا العبقري الذكي الذي أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قدم وأنباء المستقبل مهما بعد . .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[1] .

إنه النبي وليس العبقري ، إنه المرسل وليس كبقية المصلحين

---

(١) الأنعام/ ٦٧ .

وما عبقريته إلا ومضة من قبس النبوة ، وما إصلاحه في المجتمع الذي عاش فيه إلا بانعكاس ظلال هدى الشريعة السمحة التي جاء بها هادياً وبشيراً ونذيراً . .

الدليل السابع
التناسق الفكري في القرآن

بعد أن عرفنا الشيء الكثير عن القرآن ، علينا الآن أن نغوص في أعماقه ، ونتحرى ذاتيته ، لنقف على موضوعاته المتعددة ، وفكره الإنساني الشامخ وتكامل بناء لبناته التي تم تجمعها في بضع وعشرين سنة ، فكونه منجماً لم يغض من كماله ، فالمتصفح له كله لن يرى آية أدخلت الضيم على أختها ، ولا يلمح سورة تنكرت وخالفت أخرى ولا يشاهد واحدة أتت بفكرة مغايرة لما سبقتها بل ترى التناسق والتكامل والترادف لتحقيق الغاية الكلية وهو الكمال الذي نطق به في آخر آية نزلت :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

لا جرم أن القرآن هو النمط الوحيد في القوة والإبداع ، ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته ، ولا يعثر القارئ الباحث على اختلاف في جزئياته ولا في كلياته ، فكيف تحققت فكرة التناسق بين آيات القرآن المتعددة المعنى المتباينة الظروف ، المختلفة الأغراض علماً بأن الشعراء في العصر الجاهلي لم يتعودوا

في قصائدهم الالتزام المستمر للفكرة المتناسقة ، حتى إِن بعضهم كان يضع في كل بيت معنى مستقلاً عما قبله وعما بعده . . . والمتحري للتراث الثقافي الإنساني يصل إلى الإقرار بأنه ما وجد كتاب في هذا التناسق والتكامل في مواضيعه المتعددة ، وغاياته السامية ، وتشريعاته المبنية على الفطرة الإنسانية ، وقد تم ذلك كله على الرغم من بعد الشقة ، بين نزول أوله وآخره ، والظروف التي مرت بينهما وإذا ما تحريت أديباً ودرست فترة خمس وعشرين سنة من حياته فستجد بعد الشقة بين الحياتين حتى لتخال أن الأديب في بداية الفترة غيره في نهايتها ؛ وسوف تجد أن ما كتبه في بداية حياته قد تركه ونقده في نهايتها . . ولربما قيل إِن الآيات الناسخة والمنسوخة من هذا القبيل والرد على ذلك سهل لكون الآيات الناسخة والمنسوخة ما هي إلا آيات تتوخى التدرج في فهم الأحكام وتطبيقها ، فبعد أن يتحقق تطبيق الأحكام في الفترة الأولى تتنزل الآيات الناسخة لإتمام الشريعة وكمالها ، وهكذا . وعلى سبيل المثال خذ الآيات التي تم فيها تحريم الخمر . . . فترى كيف توخت التدرج في الوصول إلى الحكم الشرعي النهائي ، وبعد هذه اللمحة الخاطفة علينا أن نبين صورة بسيطة عن التناسق بين الجزئيات والكليات في القرآن .

ومن الأمور الكلية النظرة الموحدة عن الله والكون والإنسان ، فالمتطلع إلى خفايا الأغراض في الآيات ، يلمح نظرة واحدة

لا ثانية لها وعلى سبيل المثال :

النظرة الكونية : فلنقرأ هذه الآيات المتناثرة في كتاب الله :

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ [الزمر : ٢٠] .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾[1] .

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [يونس : ٦] .

﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ [النحل : ١١] .

﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ،

---

(١) يس ٣٨/٣٩/٤٠ .

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ [الروم : ٢٠ ـ ٢٧] .

﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ [الرحمن : ٣ ـ ٧] .

﴿ وكل شيْ عنده بمقدار ﴾ [الرعد : ٨] .

أما شاهدت في مجموعة هذه الآيات وحدة في الموضوع وانطلاقاً لفكرة واحدة غايتها صلة السبب بالمسبب والرجوع بالمخلوق إلى الخالق وكل هذا في كشف دقيق لقانون الكون المتناسق والمقدر والموزون وهذا المعنى يتجلى في هذه الآية :

﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [الفتح : ٢٣] .

ولذا ترى غرضاً واحداً لمجموع الآيات الكونية رغم تباينها واختلاف مواضيعها بل تجد لهذه الآيات غرضاً خاصاً وهو معرفة نظام الكون وغرضاً عاماً شاملاً تحويه جميع الآيات وهو الإشارة إلى قدرة الله المطلقة والموجدة والمقدرة في هذا الكون ، وهذا كله يظهر في فكرة الوحدانية التي ترفع الإنسان إلى أعلى مستوى الإنسانية دون العكوف على صنم ولا الاهتمام بشمس ولا قمر لذاته . . وهكذا يرى القارئ الكنز الدفين تحت الجمال اللغوي ، والسر المصون خلف المعاني الواضحة الجلية ، وقد جمع بقصد في اللفظ مع الوقار الكامل بحق المعنى ، وهذا نادر الحصول وغاية دونها الإعجاز في تحقيقها . . . وبعد ذلك ترى خلف هذا التناسق إقناعاً للعقل البشري وإقناعاً للعاطفة الإنسانية ، لأن الإنسان في حد ذاته يملك قوتين : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، وأما إحداهما فتبحث عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به . وأما الأخرى فيحل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم ؟ والمعنى المحقق لغرضه هو الذي يوفي للقارئ هاتين الحاجتين ، وهذا ما يجده القارئ في كتاب الله . . . المبين لحقيقة الكون الناطق بالحق ، أما وجدوا ما فيه من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما في السماء من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ! إن الثبات والكمال والجمال ، والكمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق البديع لهذا الكون المتكامل ولذا نرى

مجموعة هذه الآيات تحقق معنى :

﴿ تبصره وذكرى لكل عبد منيب ﴾ .

نعم إنها تبصرة تكشف الحجب وتنير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب تنفع كل عبد عاقل حكيم .

وهذه الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل المرتب ، تجعل للنظر في كتاب الكون ومعرفته إليه أثراً في القلب . ولذا أعاد ، وكرر ، وبسط ووضح في كثير من هذه الآيات ليركز عقيدة الإنسان بالعين المجردة لتلمح عظمة الله في مخلوقاته .

فالقرآن بناء متماسك قد بني على مقاصد كلية وأقام لكل مقصد دليلاً ، ولكل فصل برهاناً ، وتناسق القرآن كتناسق الحجارة في البنيان ، بل إنه التحم كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان . . أي تدبير محكم ، وأي تقدير مبرم ، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ولا يتردد ، لقد أعد لهذه الآيات المبعثرة نظامها الكلي ونسقها في إبان نشأتها إلى ما قدر لها ، حتى صيغت في ذلك العقد العظيم ، ولا بأس أن نرى تناسق القرآن في النظرة للإنسان :

﴿ ولقد كرمنا بني آدم . . . ﴾ .

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة . . . ﴾ .

﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض . . . ﴾ .

﴿ هو الذي جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ .

﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ .

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ [يونس : ١٤] .

وإذا أردنا جمع الآيات التي تبحث عن الإنسان لضاق بنا المجال واحتجنا إلى مؤلف بذاته ، وإذا ربطنا الأجزاء المتناثرة التي تبحث عن الإنسان وماهيته ومصيره ونفسيته وشعوره ، لوجدنا بحثاً متناسقاً متكاملاً ، لم يترك شيئاً من ذاتية الإنسان ولا من أحواله النفسية والخارجية . وإن الأفكار المتناسقة في القرآن لتظهر للعيان ؛ فالأمور التي تبحثها كثيرة ؛ كارتباط الحوادث في الكون بعضها ببعض ارتباطاً مطرداً ، ومما يوحي من نظريات الفكرة السببية فجعل من الكون والإنسان ، مجالاً للبحث ، وإشراقاً للروح ، وإنعاشاً للحواس التي هي نوافذ الفكر البشري للمعرفة الإنسانية . . ومن أروع ما ظهر فيه التناسق في القرآن ذلك التعاضد والتوافق بين الروح والجسد فليس في القرآن صراع وعداء بين الروح والجسد كما نجده في الأديان الأخرى بل نجد التعاون الواضح لإيصال الإنسان إلى حياة روحية ومادية بأعلى إمكانياتها .

وهذا ما نلمحه في هذه الآيات :

﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . . . ﴾ [القصص : ٧٧] .

﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ [الأعراف : ٣١] .

﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾ . . . [النحل : ٣٠] .

وليس في القرآن عالم الجسد وعالم الروح ، وعالم السماء ، وعالم الهاوية .

﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ .

﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ .

﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ [الزمر : ٧٤] .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾(١) .

---

(١) النور/ ٥٥ .

فليس إذن في العقيدة الإسلامية إنسان متصدع يتوزع بين نوازع الروح ونوازع الجسد ، وليس فيه عالم متصدع يتوزع بين السماء والأرض ولا خليفة متصدعة تتوزع بين اللعنة الأبدية ، أو المغفرة عن طريق الصلب . وهذا مما جعل طه حسين يقر بهذا التناسق العجيب فقال : (على الرغم مما له في هذا الموضوع من آراء) وليس في التراث الإنساني كله شيء يشبه القرآن الكريم . .[1]

وأما عن الوحدة في الموضوع فلم يكن مصادفة ولا اعتباطاً أن ينفق القرآن ثلاث عشرة سنة كاملة في تقرير قضية واحدة أصيلة هي قضية الألوهية . . وقضية الاعتقاد .

لم يكن ذلك لأن العرب مغرقين بالوثنية فحسب . .

ولكن كان السبب إلى جانب ذلك وقبل ذلك . . لأن هذه القضية هي محور ارتكاز الحياة البشرية كلها لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية في نفوس الناس ، ورسخت في ضمائرهم ، وصارت هي الأساس والبناء التحتي لكل انطلاقه في هذا الوجود ؛ لذلك ظل القرآن في الآيات المكية يؤكد على تثبيت العقيدة ، وترسيخ التوحيد ، ودحض الشرك ، والوثنية ، فجاء لنا بتوحيد صاف لا يشوبه غموض ، فلا تعقيدات

---

(١) الإسلاميات ص٦٣٨ .

في الطبيعة الإِلهية ولا أسرار ، ولا لبس في الاعتقاد ، بل جاء بخلاصة المبادئ والغايات التي جاء بها الأنبياء ، والتي وافقت توحيده الخالص ، وهذا كله واضح في هذه الآيات التي سأعرضها لديك .

قال الله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إِلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إِله غيره ، إِني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه : إِنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه في الفلك فأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إِنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [الأعراف : ٦٣] .

﴿ وإِلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إِله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه : إِنا لنراك في سفاهة إِنا لنظنك من الكاذبين ، قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول رب العالمين ، أُبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إِذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة

فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد أباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ [الأعراف : ٧٢] .

﴿ وإلى ثمود آخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال ، يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ [الأعراف : ٧٩] .

وقال الله تعالى :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

ثم جاء القرآن ليؤكد ما جاء به الأنبياء السالفون فقال :

﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ [الأحقاف : ٤] .

ونلمح في هذا تلقيناً من الله لرسوله ﷺ ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح ، الكتاب الذي لا يقبل الجدل والمغالطة إلا مراء ، ولا يستطيع الإنسان أن يزعم أن تلك المعبودات ـ سواء أكانت حجراً أم شجراً أم جناً أم ملائكة أم غيرها ـ قد خلقت من الأرض شيئاً .

ثم يؤكد القرآن مسفهاً أحلام الوثنيين موضحاً فكرة التوحيد قائلاً :

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . . [الأحقاف : ٦] .

وإذا أردنا أن نجمع الآيات التي تبحث في موضوع العقائد لوجدنا المجموعات الهائلة التي ناقشت الموضوع من جوانب متعددة وغاصت في أعماق الفكر الإنساني منذ وجد حتى وصل الذروة من الكمال وهي تدق على ناقوس واحد وتهدف لغاية واحدة ألا وهي تثبيت عقيدة الوحدانية ، فأنى لإنسان عاش في كنف الوثنية ، ولم يسبر غور الماضي ولم يتطلع على المستقبل أن يأتي ببحث كامل عن الوحدانية ويناقشها في أدوارها ويضع الدواء للقلة المستعصية لا شك أن القدرة الإلهية هي التي أوجدت كل ذلك ، وما كان دور الرسول إلا التبيان والتوضيح والشرح للغامض من القرآن . . .

وبعد هذا كله لا ضير علينا إذا ناقشنا الأمور الكلية في القرآن (كموضوع الإرث) وتقسيماته الدقيقة ، وحقوق كل فرد بتناسق حسابي عجيب حتى صار علماً بذاته ، وله أصوله ، وفروعه ، وكلياته ، وجزئياته ، وكل هذا بتناسق مع الفكرة الإسلامية الجامعة للحياة الاجتماعية من نظام الأسرة ، ونظام المجتمع ، وما تولد عنها من تكامل الحياة ضمن الأسرة . فهذه آيات تؤكد على طاعة

الوالدين وتقرنها بالعبادة لله ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ . وتلك آية تبحث في نظام الزوجية وتعاونها والمشاركة الفعلية بنسق نفسي ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] والمتمم للبحث يجد هناك آيات في حقوق الزوج وحقوق الأولاد ومشكلات المجتمع ، مما يدهش الباحث المتعمق . فالمتحري للحقيقة يجد نظام الأسرة في الإسلام بشكل لا نظير له ، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها وفصلها وكشف اللثام عن خفاياها . .

ومن الجزئيات الهامة المفصلة مشكلة الربا والاحتكار والغبن في البيع ، وطلب كتابة الدين وإشهاد الشهود ، وحقوق المحتاجين . كل هذه الأمور شهادة على أن هذا المنهج المتكامل خطط للإنسانية من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى ولا بديل للبشر عن هذا النهج الرفيع . لأننا نجد فيه الحلول السليمة لمصائب الرأسمالية كلها من طغيان وفساد ، وإذلال للخلق واستعمار بشع ، واستغلال للشعوب . . . كل هذا عن طريق الأمور التي حرمها الإسلام كالربا والاحتكارات . . . وكلها تقوم على أحكام الربا والاستغلال علماً بأن هذه الأمور لم تكن واضحة يوم نزل القرآن ، ولم يكن ظاهراً

---

(١) الروم/ ٢١ .

بأن الرأسمالية الطاغية ستقوم على الربا ثم على الاحتكار . وإن تحريم الربا والتشديد في تحريمه بالإضافة إلى تحريم الاحتكار يكفي وحده لأن يثبت ربانية هذا المنهج . . .

ولو استعرضنا هذا المنهج الاقتصادي الإسلامي في نظريته العامة التي تقوم على استخلاف الله للإنسان في الأرض ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وعلى كون المال مال الله ، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه ، كل ذلك وفق الشروط المبينة في شريعة الله عز وجل ، لرأينا في القرآن تناسقاً في النظرية ، وإِحاطة للفكرة ، وتحقيقاً للغرض الذي بدأ به وبحثه ، ولا نجد تناقضاً في المنهج العام والخاص للنظام الاقتصادي بل نعثر على ترادف وتكامل كلي بين الجزئيات والكليات .

وبعد هذا إنني لأدعو المثقفين العرب أن يحيطوا بالفكر القرآني ومنه الفكر الاقتصادي الذي بحث من قبل الكثير من المفكرين المسلمين مثل كتاب (اقتصادنا) لباقر الصدر وبحث العدالة الاجتماعية وبحوث كثيرة منها كتاب التنمية الاقتصادية والإسلام لـجاك أوستري . . . وبعد ذلك عليكم أن تنظروا نظرة سليمة لأنه هل يعقل من رجل عاش قبل أربعة عشر قرناً أن يعطي بحثاً اقتصادياً متكاملاً ، حين كانت الإنسانية تسير خبط عشواء حيث لا حاجة لهذه الأمور الاقتصادية ولا ضرر منها ، وقد بحث أموراً وصلنا

إليها في مجتمعنا العالمي اليوم كالربا والاحتكار الذي آلت إليه البشرية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وإذا كان محمد هو الرجل العبقري الذي قام بكل هذه الأشياء ، ودعا إليها فلا يعقل أن يكون بشراً عادياً ، وما دام يؤكد بشريته ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ فهذا يدل دلالة مبينة على أن مصدرية هذه البحوث المتناسقة في كل من الحكم والمال والاجتماع ، وجميع الأمور التي يتناولها القرآن من مصدر علوي ذي قدرات خفية وعظيمة وغيبية . كل هذا رد فعل على من يقول ببشرية القرآن الكريم ودحض للفرية القائلة ، (وما القرآن إلا انطباع للبيئة العربية في نفس الرسول) وقد ردد هذه الفرية بعض المثقفين العرب نقلاً عن أسيادهم المستشرقين مثل (جب) في كتابه المحمدية فما هو جواب هؤلاء المتنطعين على تناسق الفكر القرآني ، وكيف يستطيعون الجمع بين الغيبيات التي ناقشها القرآن وأوجد لها الدواء الشافي مع قولهم بالبشرية للقرآن . . . وهل بإمكانهم القبول بالتحدي الذي تحداهم القرآن به . وخاصة منهم كبار الأدباء والمفكرين في المجتمع العالمي . . .

وهناك فئة تقول : إن كان هذا القرآن متناسقاً ، والرسالة صالحة بكليتها فلماذا لم تتجسد سلوكاً مستمراً على مر الزمن ؟؟ . . .

الجواب : إن العقيدة الشاملة هي التي تضع للناس مقاييس للأعمال والأخلاق وليست هي المجبرة التي تعمل بأيديهم ما يطلب منهم أن يعملوه أحراراً في الرأي والشعور ولو كان شفيع القانون للبقاء أن ينفذه كل خاضع له حرفاً حرفاً وأن يمتنع خلافه أصلاً وفرعاً لما كتب لقانون بقاء . . . وكذلك الأخلاق فهي باقية على الرغم من تضافر البشرية لتحطيمها ولإبعادها من حياتهم العملية ، وما أجمل أن ننهي بحثنا بقول رائع للباقلاني يصف تناسق القرآن :

« تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ونظم أنيق ومعرض رشيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا مُتَلَو على الأفهام ، ولا مستكره في اللفظ ، ولا مستوحش في المنظر ، غريب في الجنس غير غريب في القبيل ، ممتلئ ماء ونضارة ، ولطفاً وغضارة ، يسري في القلب كما يسري السرور ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب ، جموح على المتناول المغتاب ، كالروح في البدن ، والنور المستطير في الأفق ، والغيث الشامل والضياء الباهر » .

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : ٤٢] .

الدليل الثامن
القرآن والعلم

قال الفيلسوف الإفرنسي ألكسي لوزان : « إن القرآن الكريم هو آية في البلاغة وسجل للأخلاق وكتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية » .

وإن الآية الأولى التي نزلت على محمد ﷺ لتدق ناقوس العلم ليتحرك . .

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . . . ثم الآية الثانية ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ . .

وهذا قسم عظيم ، فيه تقديس للمقسم به ، وإعلاء لشأنه . . .

واستمر القرآن بآيات كثيرة يعتمد في مسيرته الفكرية والاجتماعية والسياسية على العلم والمعرفة وكان يؤكد على فضل العلم . . .

﴿ يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات . . . ﴾ .

﴿ إِنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾ .

فالقرآن كان الباب الذي خرج منه العقل البشري الناضج بعد أن قطع الدهر في طفولته ومراهقته ، وكان المرحلة النهائية لمراحل الأديان والكتب المقدسة السماوية . . . وكل دين سماوي ما هو إلا طور من أطوار النمو لهذا العقل الإنساني ، وما التاريخ إلا مقياس عقلي درجاته وأرقامه هذه العصور المختلفة التي يستعيد العقل فيها مقدار زيادته ، ومقدار نقصانه . ولذا جاء القرآن خاتمة لمراحل النضج البشري ؛ وذروة في الكمال الإنساني ؛ فوضع الأسس الثابتة للمعرفة ، والخطوط العريضة المستقرة للحياة على هذه البسيطة ، وأرسى قواعد الحضارة وحمّل الإنسان المسؤولية الكبرى في جميع تصرفاته ، وهذه الآية تشهد بذلك ﴿ إِن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ وأكد في الحض على طلب العلم والمعرفة ولم يقصرها على العلوم الشرعية فقط بل إِن كلّ علم نافع فهو في الشريعة الإسلامية فرض كفاية : إِن لم يوجد في الأمة من يتعمق ويختص به أثمت الأمة جميعاً وإِن قام به بعضهم سقطت فرضيته عن الآخرين .

وإِن عدد آيات القرآن التي ذكرت العلم ونوهت بفضله تزيد عن / ٨٣٥/ آية . ولا يعرف مثل هذا الحافز العلمي والاجتماعي في غير القرآن ، ولم ترتق الأمم الحديثة إِلا به وإِذ تجد لكل علم رجالاً

ينطقون به ويحيون له ، ويموتون عليه وبهذا يدعو الإسلام إلى العلم بلا نظير وهذا يلمح في قوله تعالى :

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبه : ١٢٣] .

بالإضافة إلى طلبه للعلم ، والحث عليه فقد جاء القرآن كاشفاً اللثام عن بعض العلوم ، ولو بشكل مقتضب وقد أثبتها قبل أربعة عشر قرناً ولقد أشار إليها العلم وجاء مؤكداً لها :

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ [نوح : ١٦] .

وهذا هو العلم يثبت أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي (سراج) إذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداء ، ولا بد له من مصدر يبعثه فذكر السراج بعد النور . . وهذا دليل على أن هذا مصدر لذاك ! فتأمل . . أيمكن أن يكون هذا في طاقة رجل من الأميين يحدث الناس قبل أربعة عشر قرناً حيث لاكشف للعلم عن ذاك ولم تصل علوم الفلك إلى القبول بهذه النظرية ، وقد ثبت الآن بالدليل القاطع عند العلماء وخاصة بعد صعودهم إلى القمر وكشفهم للأيام المظلمة والأيام المضيئة على سطحه حيث لا تنعكس الشمس في أيام وتكون أيام القمر مظلمة والأخرى تنعكس فتسمى أياماً مضيئة .

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وهذه الآية العلمية الفلكية تشهد على نبوة محمد لأن العلم الحديث قد أعلن بالسير المستمر للشمس نحو نجم كبير يسمى الجاثي . . . وإن هذه الآية في ظاهرها كانت تخالف ما أجمع عليه علماء الفلك في عصر اليونان وهذه الاكتشافات الحديثة أتت مواكبة للقرآن . .

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيد ﴾ [فصلت : ٥٣] .

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي أفلا يؤمنون ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

إن هذه الآية القرآنية تخبرنا أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل الأجزاء ثم انفصلتا . .

هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئاً واحداً مكوناً من غاز ثم انقسم إلى سدائم ، ومجرتنا الشمسية كانت نتيجة تلك الانقسامات ومما يؤيد هذا القول أن العلماء استدلوا على أن في الشمس ١٧ عنصراً من عناصر الأرض والعناصر الشهيرة في الشمس هي ذاتها الشهيرة في الأرض

وهي : الهيدروجين والهليوم والكربون والآزوت والأكسجين والفوسفور والحديد الخ . . استدل العلماء على كل ذلك بالتحليل الطيفي وهو الذي يستدل به الكيماويون اليوم في معاملهم على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر يكشفون عن نوعها وعن مقدارها . .

ومن ناحية أخرى فإن النيازك هي المواد التي هبطت من إحدى الكواكب وتبردت . وموضوعة في المتاحف العلمية الحديثة في العالم ، هي الأشياء الملموسة الوحيدة التي حصل عليها العلم من الفضاء الخارجي ولاحظوا أن أكثر العناصر شيوعاً في الأرض هي ذاتها الشائعة في النيازك الحجرية التي عثروا عليها ، أما الشطر الثاني من الآية :

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ .

فهو من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية ، أدرك العلماء سرها فمعظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو يحتاج إلى الماء ، وهو العنصر الأساس لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات . والماء يغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض ، وله درجة ذوبان مرتفعة ، وهو يبقى سائلاً فترة طويلة من الزمان ، وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع ، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت ويحفظها من التقلبات

العنيفة ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الأرض للحياة إلى حد كبير ، وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته . . فالماء هو المادة الوحيدة التي تقل كثافتها ويزيد حجمها عندما تتجمد ولهذا الخاصة أهميتها الكبيرة بالنسبة لحياة الأحياء المائية ، إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلاً من أن يغوص إلى أعماق المحيطات والبحيرات . . ويكون الثلج طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد . والماء يمتص كميات كبيرة من الأكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة ، وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار من الأسماك وغيرها ، فما أعجب حكمة القرآن الذي بين بكلمات قليلة العدد سر الحياة على هذه الأرض .

هذه الآية من أقوى الدلائل على صدق نبوة محمد ، فالقرآن استهل هذه الحقائق عن وحدة الكون وسر الحياة بمخاطبة الذين كفروا بوجود الله بهذه الدلائل العلمية الدامغة التي تدل على وجوده وصدق نبوة الرسل لهم ، والتي لم يدرك العرب في الماضي أسرارها بل أدركها العلم اليوم بعد جهود استغرقت أجيالاً في مجالات هذا الكون .

ونرى في خاتمة الآية استبطاء مع استفهام فيه الاستغراب والتعجب

من جمود فكر المجادلين بقوله : أفلا يؤمنون .

آية النحل في القرآن التي تجلت بفوائد جمة للعسل وقد استحضرها الأطباء وأجمعوا على علو الفائدة من استعماله فلنقارن بين الآية التي تقول :

﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إِن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ [النحل : ٦٩] .

نجد أن القرآن يقرر بأن في العسل شفاء للناس وجاءت الاكتشافات الطبية الحديثة تؤكد عملياً وعلمياً الشفاء المكون في العسل والدكتور جارفس الطبيب المتخرج من مدارس الطب البريطانية وصاحب المباحث العلمية الشهيرة يقول في كتابه (عن الطب الطبيعي) قال : إِن الدكتور ساكيت أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في فوت كولنز وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض في قوارير مملوءة بالعسل الصرف . فماتت جراثيم التيفوئيد بعد ثمان وأربعين ساعة . . وماتت جراثيم النزلات الصدرية في اليوم الرابع . . وماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم يقول ويقرر أن البكتريا لا تعيش في الشهد لاحتوائه على مادة البوتاس وهي تحرم البكتريا تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها . .

ثم نقل تقرير الأستاذ شويث العالم الكيماوي الذي يقول فيه : إِن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان الشهد ويبين علاقة المواد الغذائية باختلاف ألوانه وما احتوته من أسباب الشفاء ثم يعدد مزايا المادة السكرية في الشهد قائلاً عنها :

١ ـ إنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .

٢ ـ إنها سريعة التخثل في البنية .

٣ ـ إنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .

٤ ـ مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .

٥ ـ إنها من بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .

٦ ـ إنها مهدئة ملطفة .

٧ ـ مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلاً عن سهولة الحصول عليها(١) .

ثم يلخص خصائص الشهد النافعة للعلاج بخمس وعشرين صفحة .

وبعد هذا التقرير الطبي ماذا نقول ، أنى لمحمد بن عبد الله أن يتعرف هذه الأسرار المختبئة وراء العلوم ، وخلف القرون التي لم

---

(١) ما يقال عن الإسلام ص٧٢ .

يكشفها العلماء إلّا في عصرنا الحديث . . بل نجد أن القرآن قد خصص سورة كاملة سماها (سور النحل) وذلك لأهميتها وفوائدها وما عرف الرسول ذلك بالدراسة أو بالنقل ، لأن تلك الفوائد لم تكن معلومة ، وهذه الآية هي الدليل القاطع على توافق العلم الحديث بأعلى اكتشافاته الحديثة مع كتاب الله عز وجل .

ولم يبين قيمة النحل إلا من أوجد سرائر العلوم وخفايا الأشياء ولن يكون الموجد لهذا الكتاب العلمي الفكري الرائع إِلا موجد الأشياء وخالقها . .

وإلا فماذا يجبر الملحد والمكابر على مقارنة هاتين الحقيقتين: توافق القرآن في هذه الأمور مع توافق العلم لما آل إليه من بحث واكتشاف .

قال الله تعالى :

﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإِنا لموسعون ﴾ [الذاريات : ٢٧] .

أما ترى معي أن هذه الآية تشرح وتصف اتساع الكون أم أنها تقرر نظرية تمدد الكون .

فمن الناحية الأولى نرى أن آينشتين يتخيل سعة الكون بأنه يتسع لبلايين من السدم ، كل سديم منها يحتوي على مئات الملايين من النجوم الملتهبة[١] وهذا ما قرره علماء الفلك وإذا أردت سعة

---

(١) عن كتاب (العلم وأنشتين) .

الاطلاع على هذا الموضوع فبوسعك مراجعة كتاب (مع الله في السماء) لأحمد زكي فهو يقرر فيه أن في السماء نجوماً بعدد حبات الرمل الموجودة في مساحة أرض كبريطانيا على عمق ٣٠٠متر . . وقال بعضهم لو وضعت على خط الاستواء رقم ١ ثم وضعت أصفاراً أمام الواحد حتى ينتهي خط الاستواء في الطرف الثاني لكان عدد النجوم أكبر من هذا العدد . .

أما نظرية تمدد الكون التي يقررها القرآن فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركات السدم الخارجية ، حركات نظامية استدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو « الجزر الكونية » تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية ، بل ويتباعد بعضها عن بعض ، وعلى هذا الأساس ، فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها .

وقد تقدم عدد من العلماء الفلكيين بنظريات تشرح لغز الكون الممدد منهم الدكتور هابل رائد الباحثين في السدم فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد ، وهي أنها أميل إلى الإدبار عنا منها إلى الإقبال كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية[١] .

---

(١) (كتاب الشمس) الدكتور جورج جامون .

قال الله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعَّد في السماء ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

هذه الآية توضح ما اكتشفه العلم الحديث وذلك بفضل الطيران والبالونات وأدرك العلماء بأن في الصعود ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص أكسجين الهواء في طبقات الجو العليا فيشعر الصاعد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق . . . علماً بأن محمداً ﷺ كان يعيش في سهل ولم ينتقل بين الجبال، لأنه ربما يقال بأنه استدل بها من تجاربه الشخصية فنرى روح الإعجاز قد خيم على هذه الآية التي صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الضيق ، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا ، فضلاً عن أن الآية لم تُعبِّر عن لفظ الصعود في الجبال بل عبرت عن الصعود (في السماء) وعلماً بأن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحارى ممتدة لا يعرف فيها الساكن فكرة عن تسلق الجبال العالية ولا يشعر المتسلق فيها شيئاً من الضيق ، وهذا الاتفاق الرائع بين الآية القرآنية والعلم يثبت صدق نبوة محمد ﷺ .

قال الله تعالى :

﴿ وإِن من شيءٍ إِلا عندنا خزائنه وما ننزله إِلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر : ٢١] .

وقال أيضاً :

﴿ وكل شيءٍ عنده بمقدار ﴾ [الرعد : ٨] .

وقال في موضع آخر :

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيءٍ موزون ﴾ [الحجر : ١٩] .

إِن الباحث الموضوعي يرى الترادف والتوافق بين الآيات والواقع العلمي الحديث وعلى سبيل المثال نجد أن نسبة الأكسجين في الهواء ٢١٪ فلو ازدادت لأحرقت كل مادة قابلة للاحتراق ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلتهب الغابة التي حولها . .

ونلاحظ أن تغذية القلب للأعضاء فيها الاتزان والتناسق في العطاء ، فالعين تأخذ قدر حاجتها والفخذ يأخذ قدر حاجته وكل شيءٍ في مقدار معلوم لا يتعداه ثم إن اشعاعات الشمس هي مقدار فلو أنقصت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت الأرض ومن عليها ولو ازدادت بمقدار النصف لأصبحنا رماداً . .

والمتأمل الجاد يرى أن الثمار تتنوع خلال فصول السنة ويرى

النضج المرحلي في النوع الواحد دون طفرة واحدة ويرى أن المقدار ينضج بالتدريج ثم يستهلكه الإنسان ثم ينضج غيره وتستمر الشجرة بالعطاء لفترة شهر أو يزيد . . فكل بقدر معلوم . .

وهذه الآيات العلمية الثلاث تثبت خلاصة ما قاله العلماء عن القوانين العلمية والدساتير الرياضية . وهل كان محمد ﷺ باحثاً أو فيزيائياً أو كيميائياً أو أنه الوحي الذي بكل هذه الآيات العلمية يهز قلوب الجاحدين ويلين أسماع المتغافلين على مر العصور وهذا مصداق قوله تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : ٥٣] .

بعد هذه المجموعة من الآيات الفكرية علينا أن نصغي إلى أقوال العلماء في علوم القرآن وموافقتها للعلوم الحديثة . . وهذا بريغولت في كتاب (بناء الإنسانية) يقول : لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . . ثم يقول فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة ناطقة .

وعلينا أن نثبت لك في الكتاب مقتطفات مما قالته الدكتورة لورافيشيا فاغليري في كتابها « دفاع عن الإسلام » تصف العلم

العميق في القرآن وتنفي أن يكون من صنع محمد ﷺ فتقول :

« إننا نقع ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تعجز أكثر الناس ذكاء وأعظم الفلاسفة وأقدر رجال السياسية . ولهذه الأسباب كلها لا يمكن للقرآن أن يكون من عمل رجل غير مثقف قضى حياته كلها وسط مجتمع جاف بعيد عن أصحاب العلم والدين ، رجل أخبر دائماً أنه ليس إلا رجلاً مثل سائر الرجال فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات . . . .

وإِن القلم ليدفعني دفعاً حثيثاً لأكتب ما قاله أحد كبار المبشرين في أفريقيا عن الحضارة الإسلامية وأثر القرآن في دفعها للعلوم والمعرفة فقال بانين في كتابه « دور الإسلام في مستقبل القارة الأفريقية» .

(إِن أسباب انتشار الإسلام بين الأفريقيين ـ إذا روجعت أسبابه جميعاً ـ إِنما هي نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة إنسانية ممتازة ولم تكن في العالم حضارة تضارعها ، أو تقوى على مغالبتها ، وإن وصول الإسلام إلى القارة الأفريقية كان ملازماً لوصوله إلى القارة الآسيوية ، وقد كان امتيار حضارة الإسلام سبباً كافياً لسيادته على العالم المعمور ، والعالم المجهول الذي يصل إليه العربي المطبوع على الترحل والسياحة يعينه على مطاوعة هذه النزعة أنه اقتبس كل ما يقتبس من اليونان ، والأمم القديمة من علوم الجغرافيا والفلك ،

وزاد عليها حب الكشف الذي سرى إلى جميع المسلمين) .

وبينما كان الأوربيون يقولون على السحر كان أطباء العرب يجرون عمليات الجراحة الصعبة ، ويحسنون الانتفاع بكثير من العقاقير ، ولا تزال طرق العلاج عندهم مما يستفيد منه الأطباء في علاج بعض الأمراض إلى هذه الأيام .

ولا ريب أن عقيدة ما إذا كانت متنافية مع العلم والعقل ، بل كانت عقبة كأداء في سبيل تقدم المدنية والحضارة ، فليس لها مجال أن تستولي على ذهن الإنسان ، وتمتلك عقله وعاطفته بحيث تظل قوة قائمة لها وزنها ، وتحتل مرتبة من مراتب الارتقاء العلمي والعقلي ، وممكنة لكل مرحلة من مراحل المدنية والحضارة بل إن بقاءها رهين ببقاء نظرية فلسفية محضة في بطون الكتب لا تكادتنسى بعد تناسخ الأيام ؛ ولا ترجع بأية جدوى على نظام الأمة وأخلاقها ، وأما إذا كانت عقيدة تعتمد على أسس فكرية وعلمية محضة فهي التي يكتب لها البقاء في عالم الوجود وهذا ما نشاهده في عقيدة القرآن من بقاء وتمثل في الأفراد والمجتمعات ، وبالإمكان كما حدث في عهد الخلفاء الراشدين إقامة مجتمع القرآن لأن هذا الكتاب أتى ليواكب العقل ويأمر بالعلم ويحض عليه ؛ وقد كتب ذلك العشرات من العلماء المنصفين وهذا واضح لمن يقرأ كتاب الله ؛ ولكن وللأسف إن عدد القارئين لكتاب الله من الذين

يعادونه قلة ؛ وما عادى كتاب الله إلا جاهل ، والإنسان عدو ما جهل وهذه لمحة بسيطة وسريعة عن بعض الآيات التي تدعو إلى الكثير من العلوم الحديثة والقديمة وقد لبى بعض المسلمين نداء القرآن وبذا تكونت النهضة العلمية الإسلامية منذ مطلع العصر العباسي وخرطت قوافل العلماء لترسي قواعد الحضارة الإسلامية فهذه مجموعة من الآيات الصريحة في دعوتها للعلم والمعرفة :

١ ـ ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا ﴾[١] . إن هذه الآية فيها تصريح لا تلميح في دراسة جغرافية الأرض وتاريخ الشعوب ، وحياتهم الاجتماعية والسياسية ومعرفة الأسباب المؤدية إلى ارتفاع الأمم وانخفاضها ، وقد درس العلامة ابن خلدون هذه الأحوال ودون في مقدمته المشهورة لمحة عن علم الاجتماع وكيفية تكوين الجماعات والعوامل المتعددة في دفع القوى الاجتماعية . .

٢ ـ ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [الزمر : ٩] .

وهذه الآية تبين فضل المتعلمين وشرفهم بل تجد أنهم متميزون عن غيرهم ثم حصر التذكر في أول العلم والمعرفة .

٣ ـ ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

---

(١) الأنعام/ ١١ .

[المجالة : ١٢] .

٤ ـ ﴿ شهد الله أنه لا إِلٰه إِلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ [آل عمران : ١٨] .

العلم الذي يدعو إليه القرآن :

هل المراد كما يظنه البسطاء من المسلمين والأعداء ؟

العلم الديني فقط ؟ لا . . ثم ألف لا . . بل هو كل علم نافع ، وقد قسم العلماء العلم إلى قسمين :

فرض عين : وجب على كل مسلم تعلمه ، وفرض كفاية : إِن تعلمه بعضهم كفى وإِن لم يتعلمه أحد كانت الأمة آثمة عاصية لله عز وجل ولنتصفح هذه الآيات ونرى أن سياقها يدلنا على أن العلم هو كل علم نافع :

قال تعالى :

﴿ فلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ [الطارق : ٥ـ٧] .

وفي علم النشوء يقول لنا :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وفي علم النفس : يتجلى لنا في قوله :

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ١] .

أليس النظر في أغوار النفس يوصلنا إلى معرفة الغرائز والدوافع والميول والملكات . وفي التاريخ والاجتماع : نرى بوضوح في قوله تعالى : تلميحاً عليهم :

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [الروم : ٩] .

لم يأمرنا بمعرفة تاريخ الأمم السابقة فقط بل والعبرة من دراسة التاريخ ، وهذا توجيه علمي للفائدة من البحث والاطلاع . . وفي هذه المناسبة لا بأس أن نسوق بعض الأقوال لمؤرخي أوروبا عن العلم والإسلام :

قال العلامة دريبر في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) .

إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الإسكندرية سنة ٦٣٨م أي بعد وفاة محمد بست سنين ثم قال : فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم . .

وقال العلامة سيدلوت في كتابه (تاريخ العرب) :

كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة

والفنون وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت منهم إلى أوروبا فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها . .

وقال الدكتور جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزمن ولم يتجل تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضاً ، ونثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها .

ونقل عن الأستاذ ليبري قوله :

لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت حضارة أوروبا الحديثة عدة قرون وبعد هذا كله نصل إلى الاستغراب الشديد لرجل قبل أربعة عشر قرناً قد دعا إلى العلم بهذه الدرجة ؛ وبين فضله ؛ وتكلم عن المتكتشفات العلمية من وحي ذاته دون مؤثر خارجي ، وإن المنصف للحق يقول إن المشيئة الإلهية هي التي بينت كل ذلك ، وما هو إلا الوحي ، وإلا فما هو تفسير ذلك إِن لم نقبل بالوحي . . !![1]

---

(١) وإذا أردت الزيادة في هذا البحث فعليك مطالعة كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن) دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف =

فجميع العباقرة والمصلحين لم يأتوا بمثل ما جاء به النبي المرسل محمد ﷺ .

= الحديثة للدكتور موريس بوكاي . وكتاب الإسلام كبديل للدكتور مراد هوتمان سفير ألمانيا في المغرب وكتاب الإسلام ومستقبل الحضارة للدكتور صبحي الصالح .

الدليل التاسع
الحضارة والقرآن

استطاع القرآن أن يضع حجر الأساس ليبدأ بتشييد الحضارة العالمية وأرسى قواعدها في الجزيرة العربية بفترة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة ، واستتب الأمن بعد فوضى وتجمعت القوى العربية المبعثرة المتناحرة ، كل ذلك تم بفضل الرسالة التي تكاملت في القرآن . .

وما أجمل الوصف الذي جاء به جعفر بن أبي طالب مخاطباً ملك الحبشة وشارحاً له وضع الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول وبعدها موضحاً له المبادئ التي جاء بها محمد ﷺ عن ربه والتي لا محيد للإنسان عنها إذا أراد تشييد الحضارة الجديدة . . فقال :

أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ونخلع ، ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن

الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك[١] .

والحقيقة تقال بأن أكبر معجزة تاريخية لرسول الله ﷺ هي التي بقيت إلى اليوم معضلة في تاريخ العالم ، وهي تأليف العرب على تعاديهم وتنافرهم ، والزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم ، وتوثبهم على فقرهم وغنى سواهم حتى اكتسحوا دولة الفرس وقيضوا مملكة الروم ، وهما يومئذ الدنيا القديمة ، وهما العينان في رأس التاريخ . وقد توافقت جيوشهما والتحمت في مواطن القتال ، وسعروا الأرض ناراً وحرباً مدة ثلاثة قرون أو حول ذلك . . ولا شك أن كل هذا لم يتم إِلا بالوسائل الحضارية التي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص٣٣٦ .

بثها القرآن في جانب آياته ، فلولا هذا القرآن لم تثبت في النفوس هذه القوة المعنوية الرائعة ولما كان لمحمد ﷺ أن يغير وجه التاريخ ولذا قال القرآن له :

﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إن الله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

ولا يمكن للحضارة أن ترفع أسسها إلا بالتعاون بين أبناء الأمة التي تريد أن تشيد لنفسها حضارة ، وقد ظهرت معالم التعاون والألفة حتى صار تاريخ الأرض يومئذ عربياً ، وصار بعد الذلة والمسكنة أبياً . . واستوثق للمسلمين من الأمر ما لم ترو الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب ، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض ، وكأنما كانوا حاسبين يمسحونها ، لا غزاة يفتحونها ، فلا يبدأ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره ، ولا عجب فقد فتحت القلوب للشريعة قبل فتحها بالسيف ودخل الناس في هذه العقيدة لأنها أرادت أن تحررهم من عبادة العباد إلى عبادة الله . .

وقال أحد المفكرين العرب وهو : لبيب الرياشي :

لقد أضرم الرسول ثورات في ثورة ، مفتتحاً فضاء واسعاً للعلم واحترام العلماء والعقل والعقلاء والفكر والمفكرين وبذا شيد نواة الحضارة ، وأقام لها ركنها الركين وقال الرسول ﷺ : العلماء

مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء . . وبهذا كان يداً كبرى في إقامة صرح الحضارة العالمية ، وهل تقام الحضارة إلى على العلم والعلماء والفكر والمفكرين . .

وإن عمل الرسول لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسمى من التعظيم والإعجاب والثناء ، وأنى لإنسان أن يأتي بما جاء به دون عون من الله له . .

فلقد نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ، ولم تكن أصناماً تزيد الإنسان ذوقاً وجمالاً ، بل كانت أصناماً شائهات كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق ، وتفسد العقول ، فنقلهم محمد ﷺ من عبادة الدمامة إلى عبادة الحق الأبدي الأعلى عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه . . ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ، ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات حتى يومنا هذا . .

فلو لم يأت الرسول لتغيرت معالم الحضارة العالمية ، ولضاع تراث العالم القديم ، ولاستمرت حياة الغاب ، وبذا كانت بعثة محمد ﷺ طفرة تاريخية عجيبة أدهشت عقول المفكرين . . فقالت الكاتبة الألمانية الدكتورة زيغريد هونكة[١] :

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٨٩ .

(إِن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم ، هي من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ الحقل البشري ، فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة التي يحار الإنسان في تحليلها وتكييفها .

وقالت أيضاً : إِن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الدين الإسلامي كبير جداً .

وبالفعل ، معضلة لا يمكن للعقل الإحاطة بها إِلّا بالتسليم لعظمة هذه الشريعة ، فلقد استمد المسلمون من شريعتهم القدرة ، وتناولوا منها المفتاح الكبير ، وافتتحوا به العالم فأداروه في أقفال الأرض ، وبذا فتحت الدنيا لهم واستمروا في تشييد حضارة الإنسانية ، وقدموا للعالم مجموعة من القيم العليا ، وحافظوا على التراث الماضي ، وزادوه من عبقريتهم وبحثهم واطلاعهم . . وبذا يقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) . . يقول هذا الكلام مع تأسفه الشديد لانكسار العرب في معركة بواتيه : لو انتصر العرب في هذه المعركة لتقدمت الحضارة العالمية ثمانية قرون .

فقد كانت ثورة الإسلام على الماضي الممزق ، والضياع المميت لهي الثورة المنطلقة من أسس الحضارة التي لا بديل لها في

عالم الإنسانية ، ومن هذه الأسس ، كشف الظلم عن بني الإنسان ، ورفع لواء الحرية للإنسانية وهذا ما قاله الرسول الذي ذهب إلى رستم قائد جيش كسرى . . قال له :

« نحن أتينا لنبعد الناس عن عبادة العباد إلى عبادة الله »

وهذا ما قاله أيضاً الأب الروحاني الدكتور نقولا فياض : ولا يزال المجال فسيحاً للكلام عن الثورة الكبرى التي أثارها صاحب الرسالة الإسلامية على الظلم والعبودية ، وحب الأثرة والعادات الوثنية ، وإنها ثورة ظاهره بما علم فيها من الرحمة والعفو ، مقدسة لكونها سامية المنشأ ، نافعة بما احتوت من العلم وحب له ودفع إليه ، غنية بما أورثها من صبر الجهاد وقناعة النفس[1] .

ولنسمع ما يقوله العالم المسيحي المنصف لبيب الرياشي : ما أعظم الرسول الذي كون من قبائلهم العربية البدوية المتخاصمة الضارية المشركة الجاهلية الأمية الظالمة ، التي لم تكن شيئاً ، فكون منها أمة متحضرة متحدة وديعة ، قوية موحدة ، عالمة مجاهدة ، منصفة عادلة . . أصبحت كل شيءٍ بثلاثين سنة[2] وهكذا كانت الحضارة الإسلامية متكاملة الجوانب ليست كالحضارة الغربية

---

(١) السوبرمان الأول العالمي .

(٢) المصدر نفسه ص٢٧ .

الحاضرة التي تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان ، من حياة مادية ولكنها قد قصرت على عنصري الروح والمادة وبذا وصلت بالإنسان إلى الذرورة لإسعاده ، بينما في تلك الحضارة قد ارتكزت سعادته ، لأن الحضارة هي مجموعة العوامل المساعدة للإنسان على ترقية نفسه من جميع الوجوه ، ولا تقتصر على اختراع الوسائل التي تنقص المجهود الجسدي فحسب . وتسمى إذا اقتصرت على الاختراع فقط آلية مساعدة على التطور فقط ، ولكن الحضارة هي التي تبنى من الداخل وتعنى من الخارج دون هدر لأحدهما . . والإنسان تتكامل إنسانيته بعواطفه وأحاسيسه وشعوره الضمني بالإضافة إلى تكوينه الفكري ومرتكزاته الاجتماعية . .

فالسعادة ضمنية ، والحب والإخاء والسرور والحزم كلها نابعة من الداخل وهذا ما شاهدناه في حضارة القرآن وعلى سبيل المثال نرى العناية في المادة :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ .

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ .

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وهناك عناية بالناحية النفسية نجدها واضحة في هذه الآيات :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

فلنعد إلى التاريخ لنرى تأثير القرآن في تغييره وتحويله أمة جاهلة غافلة شديدة التنافر والتدابر ، يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض فإذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً ، فألفت النظام والأمن والعدل ، وطمحت إلى الرقي والحضارة ، وظفرت منها بحظ وافر ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة ، تتعاون على الخير والسلام ، وترقية الحضارة العالمية ، والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها ، وغلظتها ،

وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة المجاورة آنذاك ، علماً بأن العرب لم يكن لديهم من مقومات الحضارة باع طويل ، ففي بداوتهم وظروفهم الجغرافية والاقتصادية والعلمية أسباب عميقية في ارتكاس حضارتهم وكل هذه الأمور لم تدع الفرصة الكافية لإنشاء حضارة . على الرغم من قيام حضارات سابقة في الجزيرة . واتصال العرب بالرومان والفرس ، وإن الانطلاقة التي شهدها المسلمون في إنشاء حضارتهم لا تقاس مع الماضي والحاضر ؛ وعملت على نقل أسسها إلى الأمم المتعاقبة ؛ حتى وصلت إلى أمم اليوم ، وبذا يقول بريفولت في كتاب بناء الإنسانية (إنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة . .) .

وكأن الله ألقى في رمال الجزيرة روح البحر وبعثها بأمره فكان النبي هو نقطة المد التي يفور البحر منها وكان المسلمون أمواجه التي غسلت بها الدنيا وبذا أرسوا قواعد الحضارة الإنسانية .

فعجباً من حضارة نشأت من عقيدة يشك بها بعضهم والشيء الأشد عجبا أن تستمر هذه الحضارة لحقبة طويلة من الزمن وتثبت كيانها ، وتعلن صوتها بلا منازع وبهذا يقول القرآن :

﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ [فصلت : ٥٢] .

وهذه حضارة العالم اليوم بغربه وشرقه ترتكز على خلفيات وضعية مختلفة ، فلم تستطع إيصال الإنسان إلى سعادته وهذا واقعنا العربي المتخلف الذي لم ير حضارته حتى الآن وهو يبتعد عن هذه الحضارة الأصيلة فنراه يعيش في مذلة وضياع وهذا ما صرح به أحد بناة الحضارة العربية الإسلامية عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما نرد العزة بغيره يذللنا الله) .

فأمتنا العربية إذا لم ترتكز في انطلاقتها التحررية الحاضرة على أسس علمية روحية معاً فلن يكتب لها الثبات والتقدم . . . وما بدأت أمة في طريق ما إلا بعد ارتكازها على نقاط القوى الخاصة بها ، وحين أخص السمات العربية والشرقية عامة بالروح والتراث الإسلامي ، فإن تخلت عنهما تخلت عن نفسها وبدأت من العدم ، وسلكت درب المحال والضياع . . .

ولن تصل إلى مقومات الحضارة الأصلية . .

الدليل العاشر

التشريع القرآني والرسول

« إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله » الشاطبي

إِن نظرة شاملة لتاريخ التشريعات العالمية توصلنا إلى الحقيقة التي لا بديل لها وهي كون التشريعات الإنسانية الكبرى خمسةً فقط ، وقد انعقد مؤتمر لاهاي للمحامين وقد اشتركت فيه ثلاث وخمسون دولة من مختلف الأمم والأقطار وأرسلت كل دولة من الأساتذة المحامين لديها من يمثلها فيه وقد ظهر في ذلك المؤتمر أثر المحاضرات الإسلامية التي شرحت نظريات الإسلام التشريعية وقدرته الحضارية من قبل لجنة التشريع المقارن واتخذت القرار التالي :

« نظراً لما في التشريع الإسلامي من مرونة ، وما له من شأن هام يجب على جمعية المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجع عليه » .

ولا بأس أن ننقل كلمة العلامة الحقوقي عبد الرزاق السنهوري

من مقال منشور في مجلة القضاء العراقية العدد الأول إذ قال في صدر بحثه عن صلاح الشريعة الإسلامية للخلود في ميدان التطبيق المدني :

« لا أريد الاقتصار على شهادة الفقهاء المنصفين من علماء الغرب كالفقيه الألماني كوهار والأستاذ الإيطالي وليغشبو والعميد الأمريكي ويكمور وكثيرين غيرهم ممن يشهدون بما انطوت عليه الشريعة الإسلامية من مرونة وقابلية للتطور ، ويضعونها إلى جانب القانون الروماني ، والقانون الإنكليزي ، إحدى الشرائع الأساسية الثلاث التي سادت ولا تزال تسود العالم » . وقد أشار الأستاذ لامبير الفقيه الفرنسي المعروف في المؤتمر الدولي للقانون المقارن ؛ الذي انعقد في مدينة لاهاي سنة ١٩٣٢ إلى هذا التقدير الكبير للشريعة الإسلامية ، الذي بدأ يسود بين فقهاء أوروبا وأمريكا في العصر الحاضر .

وقال العلامة الإفرنسي سانيتلانا :

« إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم إن لم نقل إن ما فيه يكفي للإنسانية كلها . .[١]

ولقد عقد البحاثة الأمريكي هوكنج أستاذ الثقافة الإسلامية في

---

(١) Avant projet du code curil et comurerceil tunisier .

كتابه « روح السياسة العالمية » فبعد أن تكلم عن أصول الفقه الإسلامي ، قال : إن سبيل تقدم الدول الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية ، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم .

وأحياناً يتساءل بعضهم عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة ، وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية . فالجواب عن هذه المسألة هو أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو ، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن في انعدام الميل إلى استخدامها . . وإني أشعر بكوني على حق ، حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض . .[١]

ويقول الدكتور أنريكو أنسابا توجين : إن الإسلام يتمشى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة ، فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل في خلال القرون ، ويبقى محتفظاً بكامل ما له من قوة الحياة والمرونة . . فهو الذي أعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً ، وشريعته تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الأوربية[٢] ولقد

---

(١) روح الدين الإسلامي ٣٠٢ .

(٢) الإسلام وسياسة الخلفاء ١٤٥ .

استعرضنا في بداية البحث ما قاله كبار الحقوقيين في العالم عن تشريعنا المستقى من الدستور الخالد وهو القرآن الكريم . . الذي فيه . .

﴿ إِن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾[1]

ويبين أن أصول التشريع تعتمد على نتائج رائعة هي خلاصة ما يريده الإنسان العاقل ؟ تصف محمداً ﷺ بأنه ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وقد أدرك علماء الشريعة غايات القرآن الكلية فقال الإمام الشاطبي في الموافقات . . إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله . .

وقال الإمام ابن القيم الجوزي في كتابه الطرق الحكيمة . . إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه . .

ولا بأس أن نذكر بعض القواعد الكلية في التشريع القرآني لنرى

---

(١) الإسراء/ ٩ .

سموه وعظمته . . قال الله تعالى :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

وقال أيضاً :

﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال تعالى :

﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ [النحل : ١٠٦] .

والقواعد المستنبطة من القرآن وأحاديث الرسول ﷺ تدل على عمق الأصل في تثبيت القواعد الكلية للتشريع الخالد :

١ ـ (الضرر يُزال شرعاً) وقد استنبطت هذه القاعدة وقواعد كثيرة من قول الرسول ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » .

٢ ـ مبدأ الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات .

٣ ـ مبدأ الضرورات تبيح المحظورات .

٤ ـ مبدأ البراءة الأصلية . . ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ . .

ومن ثم فإن المستعرض للتشريع الإسلامي في الجنايات والمعاملات والأحوال الشخصية والإرث ، يجد تشريعاً متكاملاً

يشكل لبنة خاصة بمادتها وأسسها وفلسفتها للحياة والكون والإنسان ثم إنه لا يجد بينها تبايناً كما في التشريعات الوضعية التي تجمع من عدة تشريعات لتشكل تشريعاً محلياً . .

وإنه لحري بنا إذا كنا طلاب حق ومعرفة ، أن نتعمق في معرفة هذا التشريع من كل جوانبه قبل إثبات أو نفي قدرته على الخلود . . . وهناك بحوث كثيرة في هذا الموضوع ، قد أعطت خلاصة التشريع المقارن ، وثبت في نهاية المطاف بأن التشريع القرآني هو من التشريعات الهامة التي استمدت منها بعض التشريعات الحديثة بحوثها وكل ما قاله علماء الحقوق في العالم عن الشريعة الإسلامية ما هو إلا غيض من فيض من الحقيقة الثابتة لعظمة هذا التشريع الخالد . .

ثم إن الإنسان المدرك لصعوبة إيجاد تشريع كامل من كل جوانبه ليقول معترفاً بعجزه :

إن التشريع الإسلامي ما هو إلا تشريع وضعته اليد الإلهية ولم يكن للجهد البشري أي يد في وضع أسسه العامة الثابتة ؛ وإلا لزالت قيمته بزوال عصره ، وإذا قلنا بأن اليد البشرية هي التي وضعته بشكله النهائي فما هو جوابنا للقائل كيف استشف واضعه الغيب ، وهو في عصر لم تتجمع فيه تجارب الحقوقيين بعد ، بل كيف وضعه ؟ وهو أمي عاش في كنف الصحراء حيث الفوضىٰ

المستشرية والقتال الدائر وشريعة القوي هي المسيطرة ، وهنا يجثم العجب في قول من قال . . إن هذا التشريع قد وضعته يد محمد . .

لا ثم ألف لا . . . إِن واضع هذا التشريع الخالد هو خالق محمد ، وهو الذي أرسله إلى الإنسانية الحائرة ليدلها على معالم الحياة العادلة ، والسلام الدائم وأنى لبشر أن يكتب ذاك التشريع الذي يضاهي التشريع الذي كتبه فلاسفة الحقوق في السوربون وأكسفورد والمجامع الحقوقية العالمية . .

الدليل الحادي عشر
المفكرون والرسول عليه الصلاة والسلام

إن أول العظماء الذين لهم الدور الأول في بحثنا هم عظماء الجزيرة الذين تلقوا هذه الدعوة وعاصروها إبان ظهورها ، وفي ذروتهم أبو بكر رضي الله عنه وأجمل بحث فيه ما قاله الرسول ﷺ في إسلام أبي بكر : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كبرة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ماعكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه» . .

وهذا هو أبو بكر الرجل العالم بأنساب العرب وأمثالهم وأخلاقهم وعاداتهم ، المتعالي عن الدنايا من الأمور فلم يشرب خمراً في جاهليته وما سجد لوثن قط . . وهذه النفس الكبيرة التي ملكت الشمائل الرفيعة ، وجدت مفتاح شخصيتها بالإسلام ، وبالعقل السليم وصارت إلى الحق وتعلقت به . والسؤال يطرح نفسه ؟ لماذا أسرع أبو بكر إلى التصديق بالرسالة والرسول ؟ هل قبل كل ذلك بلا محاكمة عقلية ؟ هل استسلم للشخصية القوية التي كان يملكها محمد عليه السلام ؟ وهذا الخبر يبين لنا الجواب . .

جاء أبو بكر إلى الرسول يسأله : يا أبا القاسم : ما الذي بلغني

عنك ؟ . . فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام : وما بلغك عني يا أبا بكر ؟ . . قال أبو بكر : بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسوله . .

قال نعم يا أبا بكر إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً ، وجعلني دعوة إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعاً . . فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذباً ، وإنك لخليق بالرسالة ، لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن مقالك ، مدَّ يدك فإني مبايعك .

إن الصدق والأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الفعال ، صفات يفهما أبو بكر ، لأنه يحبها ، ويتصف بها ويحب أهلها ، وآمن أبو بكر رضي الله عنه ، وصار الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عنده ، وعقيدة لها آثارها ، في سلوكه وفكره وتحليلاته للأمور . . ثم بعد ذلك انطلق ليعلن صدق إسلامه ، وعمق ثقته بالرسالة الجديدة ، وما هي إلا أيام حتى يشاهد في نادي قريش يضرب ويغمى عليه ، ثم يستيقظ ليسأل أول ما يسأل عن أحب الناس إليه . . عن رسول الله . . وإن الأشخاص المعاصرين ، هم أكثر الناس معرفة بحقيقة محمد ﷺ وأكثرهم أبو بكر رضي الله عنه ، وهذا ما نشاهد في بذله وتضحيته ، ويقدم كل ماله للدعوة الجديدة ، ويسأله الرسول ، ماذا أبقيت لأهلك وعيالك ؟ فيقول : أبقيت لهم الله

ورسوله . . ولا يكتفي بذلك بل يصدع بما آمن على الرغم من الصعوبات التي تجابه الدعوة آنذاك . فيدخل في الإسلام كبار رجال قريش والعقلاء منها ، وهذا يدل على عمق يقينه بصدق الرسول وعظمة الرسالة وهذا نشاهده عندما نستعرض أسماء من أدخلهم في الإسلام كأمثال عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من عقلاء قريش وأثريائها . . وعلينا أن نطرح سؤالاً :

ما الذي دعا أبو بكر لحمل هذه المشاق . . مضحياً بنفسه وماله ، صابراً على فتن قريش ؛ ثم ما الذي أعجبه بمحمد ؟ . . علماً بأن محمداً كان إبان ذلك ضعيفاً لم يتبعه أحد . . نعم إنه أعجب بالنبل والصدق والحق والخير ، إنها بطولة الاستقامة والدعوة إليها ، إنه عرف محمداً صغيراً وخبره كبيراً وصادقه وهو في سن الأربعين فأنى له أن يقف أمام هذا الجبل الشامخ من النور غاضاً بصره . . وإذ به يصبح اليد والقلب والعون لرسول الله . .

وإن في إيمان أبي بكر ، وصدق يقينه ، وكثرة تضحياته وثباته على الحق ، وزهده في الدنيا ، وطلبه الحثيث للآخرة لدليلاً واضحاً لصدق رسالة محمد ﷺ . . ولم يعرض تاريخ الحركات الإصلاحية ، وتاريخ الأديان مثل شخصية محمد تلك الشخصية التي دانت لها الجبابرة على الرغم من قوتها وسلطانها . . فلم يسعها

إلا أن تنظر إلى الرسول بعين ملؤها الإعجاب ، ومن ثم الطاعة والتلمذة . . وإن الناظر إلى جميع العاملين من الرعيل الأول في بداية انتشار الإسلام ، يرى أن الكثير منهم كانوا يترقبون حالة أحسن مما هم فيها ، ولكن أنى لهم ، حتى جاء الإسلام فصدقوا وأذعنوا ومنهم عمر بن الخطاب وهذا الذي قيل فيه يسلم حمار الخطاب ولا يسلم عمر بن الخطاب ، لما وجدوا من فتنته وإيذائه للمسلمين ، وعندما قرأ القرآن عند أخته ، وهذا موجود في قصة إسلامه الرائعة ، دهش من بلاغته ، وأسلوبه وعمق فكرته ، فما كان منه إلا أن ألقى عصا الترحال مستسلماً للدين الجديد مخلصاً له ، ولهذا قال كلاماً يدل على عمق يقينه بصدق الرسالة : يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا فقال عليه الصلاة والسلام : « بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حيتم » فقال عمر : ففيم الاختفاء . . والذي بعثك بالحق لنخرجن !! .

وهذا سؤال يطرح نفسه ما هي الدواعي التي جعلت عمر يقبل الرسالة . . ويخلص لها ؟ . . علماً بأنه هو القريب من محمد ﷺ ، ومن أبناء قبيلته ويعيش في كنف المدينة التي عاش فيها محمد . . ثم لماذا أنفق نصف ماله ؟! . . كل ذلك يدل على صدق الرسالة والرسول . . إن تصديق الكثير من عظماء الجزيرة وشعرائها وفرسانها المغاوير ، بل جميع العالم الإسلامي والاستمرار

على الاتباع والإخلاص إلى يومنا هذا لهو الدليل القوي على صدق ما نقول .. وإن قصة ابن سينا مع تلميذه لهي قرينة على هذه القاعدة التي أسلفنا ذكرها وهي كما يرويها أحد علماء المسلمين المخلصين في دمشق :

يروى أن ابن سينا كان له تلميذ مخلص . وعندما شاهد من أستاذه العلم والذكاء الحاد ، والذاكرة القوية ، وكثرة الخبرة بل المعرفة بجميع أنواعها من فلسفة وطب وتاريخ وفقه وجغرافيا ورياضيات وفلك ... قال له ذات مرة ، يا أستاذ : لماذا لا تدعي النبوة وقد ادعاها من هو أقل منك علماً ومعرفة .. فلم يجب ابن سينا تلميذه شيئاً ، بل تركه ليعلمه درساً عملياً لا ينساه .. ∵ النبوّة اصطفاء من الله تعالى ولا تنال بالجهد والاجتهاد .. ومرت الأيام وقد ازداد إعجاب التلميذ بأستاذه العلامة .. وذات ليلة كانا نائمين في بيت معاً ، والوقت شتاء ، والثلج والبرد قد خيم على الأرجاء .. فنادى الأستاذ تلميذه ليجلب له كأساً من الماء بشدة . فقال التلميذ : لا أستطيع لأنني أخشى من البرد ، وحاول الأستاذ مرة ثانية وثالثة والتلميذ يؤكد على أستاذه : سامحني .. اعفني من هذا العمل .. وهم في غمرة السؤال والجواب وفي منتصف الليل وما هي إلا دقائق إذ سمعوا صوت المؤذن يؤذن لقيام الليل وألح الأستاذ في طلبه إلحاحاً شديداً فلم يجد الأذن الصاغية من تلميذه وهنا قال الأستاذ له : أتسمع صوت

المؤذن ، قال نعم . قال الأستاذ : كم من الفرق بين بعثة محمد ﷺ وحياة هذا المؤذن ، قال كثير ، فقال الأستاذ : إن هذا المؤذن قد آمن بالرسول بعد وفاته بمئات السنين ، وخرج في الشتاء القارس ، وترك الفراش لإيمانه بالرسول الصادق ، وأنت أشد الناس معرفة بي ، وألصق الناس في صحبتي وقد طلبت منك كأس ماء فلم تطعني فكيف تطلب مني إدعاء النبوة . . يا أحمق !!؟ وقال الأستاذ معلماً تلميذه : إن النبي الصادق هو الذي ينتقل صدقه من سلوكه إلى من حوله ، ويستمر صدقه كامناً في النفوس ، ينتقل عبر الأجيال دون أن يتبدد من صدقه شيء[1] .

ولا بأس أن نقول بأن العلماء والمثقفين والواعين منهم ، بشكل خاص في عصرنا الحاضر قد ازدادوا تمسكاً بهذه الرسالة لأنهم يجدون في كل يوم دليلاً جديداً على صدق إلهية الرسالة ، وصدق مصدريتها ، وصدق المرسل بها . وبعد أن عرضنا فكرة موجزة عن بعض المفكرين في الجزيرة وغيرها علينا أن نلقي الأضواء على خلاصة ما قاله كبار المفكرين العالميين في الرسالة والرسول . . .

ولنتصفح ما قالته الدكتورة لورافيشيا فاغليري أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي بإيطاليا ، وقد

---

(١) من محاضرة الثلاثاء لسماحة الشيخ الدكتور أحمد كفتارو .

ألفت كتاباً سمته باللغة الإيطالية :

Apologra dell isiamismo

وترجم إلى العربية باسم « دفاع عن الإسلام » وقد قالت بالحرف الواحد ص١٤ :

فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه لا المثقفون ولا الأميون ، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان ، والذي لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء حملة الشرائع ، إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب .

وتقول : إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطة . . من خلاله . . أنباء تتصف بيقين مطلق أنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته ، إن تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب ليس بالطويل أكثر مما ينبغي وليس بالقصير أكثر مما ينبغي ، أما أسلوبه فأصيل فريد ، وليس ثمة أي نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي . . إلى أن تقول : **فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينم أي منها عن أدنى موهبة شعرية . .**

هذه خلاصة بحثها في دراستها الطويلة عن القرآن وعن الرسول وما هذا إلا إقرار بالحق الواضح الذي لا لبس فيه، فلينصف العقلاء هذا النبي ولا يتكبروا في إقرار الحق .

ولا بأس أن نورد ما كتبه السير وليم موير في كتابه « حياة محمد » يقول عن القرآن وصدق نصوصه ونسبته ومصدريته :

وكان الوحي المقدس أساس أركان الإسلام . . ويعني به القرآن . . والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ؛ ظل أربعة عشر قرناً كاملاً بنصه وهذا مبلغ صفائه ودقته . . ثم يقول : محتويات القرآن ونظامه تنطق في قوة بدقة جمعه . . وما رأيك في الاستنتاج الرائع الذي وصل إليه عالم متعصب لدينه يحاول أن يحقق نقداً لمحمد ولكتابه ولكنه بعد قراءة مستفيضة خضع للحق وأنصف القرآن بأنه لا نظير له ولا يمكن ليد بشرية أن تأتي مثله وهو كتاب خالد طوال الدهور على الرغم من تطور الفكر والحياة والتصورات . .

والكاتب ر.ف بودلي يدلي بخلاصة مطالعاته في كتابه « حياة محمد الرسول » قائلاً : فعلى الساخرين من محمد في غار حراء أن يسخروا من موسى أيضاً وهو على طور سيناء ومن عيسى على تلال الجليل . . لقد قصوا نبأ تلك الأشياء في بساطة وحسن نية ، وإن هذا لينطبق على محمد بن عبد الله والملك جبريل . . ولو عاش في

القرن العشرين . . لطابقت نظرياته نظريات المتمدنين ولكان رائدهم على وجه التحقيق . .

وقال عن القرآن في كتابه « حياة محمد الرسول » ص٢١٤ . . ولهذا الكتاب سحر خفي ، له تأثير عجيب في العرب ، فقد حول الرعاة والتجار والبدو والبسطاء إلى مقاتلين وبناة إمبراطورية ، ومؤسسي مدن كبغداد وقرطبة ودلهي ، وإلى علماء وحكماء ورياضيين . . وإن هذا الكتاب ولا شك هو الذي عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالماً أوسع من العالم الذي سيطر عليه الفرس والروم ، وقد فعلوا ذلك في عشرات السنين ، واستغرق في ذلك من سبقهم قروناً ، ومع أن الفينيقيين قد ذهبوا بعيداً عن أوطانهم وكونوا أنفسهم حيثما كانت التجارة . . ورحل اليهود بعيداً ولكن مهاجرين مضطهدين أو أسرى، فهؤلاء العرب بقرآنهم قد أتوا إلى إفريقية ثم إلى أوروبا ملوكاً .

ويقول الشاعر جوتيه الذي أسلم في نهاية بحثه وقال : كلما اقتربنا منه (القرآن) تجدد امتعاضنا ثم يجذبنا بالتدريج ويثير فينا الدهش ثم يدفعنا إلى الإعجاب به في النهاية . .

فالشاعر الألماني الكبير يقص لنا دور التعصب الذي تربى عليه في الماضي مما جعله يشعر بالامتعاض كلما اقترب من تلاوة القرآن ، ولكن حبه للحقيقة ؛ وبحثه عنها جعله يقرأ ويسأل عن

القرآن ؛ حتى وصل إليه، فإذا به يجد الحق عنده فآمن به وأسلم لمبادئه بل دوّن قصيدة طويلة يصف بها رسول الله وعظمته ، والقارئ في كتاب « العواطف كأساس للحضارة » للكاتب الأوربي (ج . هـ. دينسون) ص٢٢ يرى بحثاً مستفيضاً عن عظمة الرسول في تغيير العالم وإصلاحه يقول : ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعيد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك ، والانحلال ، وإن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام ، وكأن المدنية شجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه يعني محمداً ﷺ . . وهل بعد هذا القول قول لمنكر أو مكابر . .

ومما قاله الدكتور سدني فيشر أستاذ التاريخ بجامعة أوهيو الأميريكية في كتابه الشرق الأوسط في العصر الإسلامي وقد بحث فيه عن القرآن فقال :

إنه كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاماً عن الفرائض

والشعائر وإن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرحمها في موازين الأخلاق وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره ثم يختم كلامه قائلاً :

إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع في شؤون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية لم يكن في وسع أحد إلا **أن يعتبر محمداً عليه السلام نبياً متعلماً جداً ومصلحاً موفقاً . .**

وقال الكاتب الأوربي : الدين الحق الذي يساير المدنية هو الإسلام ، وحسبك القرآن وما فيه من نظريات علمية وقوانين ، وأنظمة ، لربط المجتمع فهو كتاب علمي اجتماعي تهذيبي خلقي[1] .

ونقول فأنى لرجل أمي أن يأتي قبل أربعة عشر قرناً بنظريات علمية وقوانين وأنظمة رائعة تثبت صلاحيتها على الرغم من تطور الحياة وترفعها عن النظريات القديمة . وفي هذا البحث نورد ما قاله الأستاذ ليوبولد فايس « محمد أسد » في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) فقال : لو كان الإسلام ومضة فكر على مسيرة التقدم الحضاري لمضى ثم جاء فكر جديد يعلوه شأناً ويترفع عنه منزلة ولكن هذا لم يتم . . ثم يقول : يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات

---

(١) روح المدنية للغلاييني ص٢٣ .

الإنسانية وجميع المدنيات أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية ، إنها تمر في جميع أدوار الحياة العضوية التي يجب أن تمر بها ، إنها تولد ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى في آخر الأمر ، فالثقافات كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل تراباً . . تموت في أواخر أيامها وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً ؛ ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية مع نموها الحاضر قد استطاعت أن تشب عن الإسلام . . **إنه لم يستطع أن يتبنى فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا « الأمة » إنها لم تستطع أن تشيد صرحاً اجتماعياً** يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلاً على مثال ما تم في النظام الإسلامي ، إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي وسعادته . .

وإن ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس إلا موتاً وخلاء يحلان في قلوبنا التي بلغ من خمولها وكسلها ، أنها لا تسمع الصوت الأزلي . .

وكتب المؤرخ الأميريكي « واشنجنون أرفينج » في شخصية الرسول فقال : هل كان ثرياً ؟ لا بل كان فقيراً ، إلا أنه تزوج خديجة فأصبح على جانب من الثراء ، وجاهد من أجل تنمية ثروته ، هل كان بارزاً ؟ نعم كان له شأن في وطنه ، فقد كان رجلاً

ذكياً وأميناً . . هل كان قوي النفوذ ؟ نعم . . فقد كانت أسرته تقوم بسدانة الكعبة وتتولى شؤون مكة تلك المدينة المقدسة ، ولذا كان مركزه وما اتصف به من أخلاق كريمة يؤهلانه ليكون موضع الثقة . ولكن حينما دعا محمد إلى الإسلام اصطدم بأسرته وقبيلته وجر على نفسه عداءها فقد كان تحطيم الأوثان يقضي على سيطرة قريش على الكعبة ، وما تستفيده من قدوم الحجاج . لقي الرسول من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء ، وبذل عدة تضحيات ، فقد شك الكثير في صدق دعوته ، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً . وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات بل اضطر إلى أن يترك وطنه ، ويبحث عن مكان يهاجر إليه فقد كان في الأربعين من عمره حينما نزل عليه الوحي وعانى كثيراً سنة بعد أخرى في نشر الإسلام بين أفراد قبيلته ؛ وحينما هاجر من مكة كان قد قضى ثلاثة عشر عاماً . فتحول من تاجر ثري إلى مهاجر معدم ، وحينما وصل الرسول إلى المدينة المنورة لم يكن يفكر في القوة العظيمة التي كانت تنتظره ، فقد كان تفكيره منصرفاً إلى بناء مسجد يستطيع أن يصلي فيه وينشر فيه دعوته ، وكان كل أمله أن ينشر الإسلام في جو من الهدوء والسلام .

حتى قال :

وكان الرسول في كل تصرفاته منكراً ذاته رحيماً . بعيداً عن التفكير في الثراء أو المصالح المادية . . فقد ضحى بالماديات في سبيل الروحانيات[1] .

وقال الدكتور جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها . وقال أيضاً : وإذا قيست الرجال بجليل أعمالها كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ[2] .

وقال الدكتور ليتز عن الرسول عليه السلام : إنني لأجرؤ بكل أدب أن أقول : إن الله هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها ولو كان يوحي إلى عباده فدين محمد هو دين الوحي ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوي وسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام فرسالة محمد هي هذا الإلهام[3] .

وقال البروفسور بورسوث سميث في كتابه :

Mohammad and Mohammamanism

---

(١) كتاب حياة محمد واشنجتون أرفنج .
(٢) ص١٤ .
(٣) الإسلام يتحدى ص٣٤٤ .

لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته ما ادعاه في بداية رسالته وإني لأجدني مدفوعاً إلى الاعتقاد بأن كلاً من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران يوماً ما إلى التسليم بأنه كان نبياً صادقاً من عند الله[1] . .

وقال البروفسور ستوربارت : إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنساني بأكمله يقارب شخصية محمد . . ويضيف قائلاً : ألا ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية ، فلن نجد فيه اسماً منيراً هذا النور ، واضحاً هذا الوضوح غير اسم النبي العربي .

وفي دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة .

ويقول بورسورث سميث : إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق . .

ولا بأس أن نذكر ما جاء في وصفه الرائع ما يدلنا على عظمته وقالوا : إنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، ليس الجافي ولا المهين

---

(١) الإسلام يتحدى ص١٧٦ .

يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم فيها شيئاً ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها فإذا تُعدي على الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، ومن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، ولا يطوى عن أحد من الناس بشره ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء ، يحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه كأنه الشمس تجري في وجهه ، لا يؤيس راجيه ولا يخيب سائله ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير[١] .

ولو أردنا أن نكتب كل ما قيل عن الرسول وصدق رسالته من أقوال العلماء لما اكتفينا بمجلد بل ومجلدات ونترك هذا للقارئ ليطلع أيضاً على ما قيل عن هذا الرسول العظيم . . .

وفي كتاب للبروفسور عبد الأحد داود عنوانه محمد في الكتاب المقدس يكرس أكثر من مائتي صفحة للحديث عن صفات الرسول محمد ﷺ في العهدين القديم والجديد ويوضح ذلك من خلال

---

(١) جمعت من روايات مختلفة .

دراسة متعمقه للغة الكتاب المقدس ولنبوءات الأنبياء التي تبشر بقدوم هذا النبي العظيم .

يقول في الصفحة ٨٢ : (أقام دين الإسلام الذي وحد في أخوة حقيقية جميع الأمم والشعوب التي لا تشرك بالله شيئاً . إن جميع الشعوب الإسلامية تطيع رسول الله وتحبه وتحترمه لأنه مؤسس دعائم دينها ولكنها لا تعبده أبداً ولا ترفعه إلى مقام التقديس والتأليه . لقد سحق محمد الوجود اليهودي المتمثل في قريظة وخيبر ودمر حصونهم وقلاعهم ووضع نهاية لنفوذهم هناك)[١] .

ويقول أيضاً (وجاء محمد ﷺ بالقوّة العسكرية ، والقرآن يحل محل الصولجان اليهودي القديم والبالي والشريعة القديمة غير العملية التي تقوم على التضحيات والرهبنة الفاسدة ، ونادى محمد بأنقى الأديان وهو توحيد الإله الحق ، ووضع أفضل العملية والضوابط الأخلاقية والسلوكية للبشر)[٢] .

وقبل أن يرسل الله محمداً بالدعوة إلى الإسلام وإزالة الوثنية الأمر الذي حققه بنجاح كان أهدأ وأصدق رجل في مكة ولم يكن

---

(١) عبد الأحد داود . محمد في الكتاب المقدس ص٨٢ ـ ٨٣ طبعة الأولى ١٩٨٥ ـ قطر .

(٢) المصدر نفسه .

بالمحارب أو المشرع ، ولكن بعد أن تحمل رسالة النبوة أصبح أفصح المتكلمين وأشجع العرب ، وكان يحارب الكفار وسيفه بيده ليس لمصلحته الشخصية ولكن من أجل مجد الله وقضية دينه وهو الإسلام ، وقد عرض الله عليه مفاتيح كنور الأرض ولكنه رفضها وعندما توفي كان فقيراً)[1] .

إن الخدمة الجليلة العظيمة المدهشة التي قدمها محمد ﷺ خالصة لله ولصالح البشر لم يقدمها أي مخلوق من عباد الله ملكاً كان أو نبياً .

أما خدمته لله فإنه اقتلع جذور الوثنية من جزء كبير من الأرض ، وأما خدمته للإنسان فقد قدم له أكمل دين وأفضل شريعة لإرشاده وأمنه ، وقد أخذ الصولجان والشريعة من اليهود فحصن الصولجان وبلغت شريعته درجة الكمال ، ولو أتيح لمحمد أن يظهر ثانية في مكة أو المدينة هذه الأيام لقوبل من المسلمين بنفس المحبة والطاعة التي قوبل بها أثناء حياته في هذه الدنيا .

وسيشاهد بسرور عميق أن الكتاب المجيد الذي تركه لم يزل كحاله الذي أنزل عليه دون أقل تغيير وأنه يقرأ ويرتل كما فعل أصحاب محمد بالضبط وسيكون مسروراً لتهنئة المسلمين على

---

(١) عبد الأحد داود . محمد في الكتاب المقدس ص٨٢ ـ ٨٣ طبعة الأولى ١٩٨٥ ـ قطر .

ولائهم لدينه ولتوحيدهم لله وأنهم لم يجعلوا منه إلٰهاً أو ابن إلٰه)[1] .

ويقول في مكان آخر من الكتاب (أرجو أن يسمح لي غير المسلمين بتقديم نصيحة من هذه الرؤيا العجيبة التي رآها دانيال . فإن عليهم أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن الله وحده هو الإله الحق وأنه سبحانه مطلع على كل من خالف أمره وانحرف عن سبيله وأن المسلمين وحدهم هم الذين يعترفون بصدق ووحدانيته المطلقة ويحظون بنعمة نبوّة محمد ﷺ سيد الأنبياء الذي أرسله الله تعالى ، والذي قرّبه إلى عرشه جلّ شأنه) .

وحين يناقش البروفسور نبوءات أنبياء بني إسرائيل يصل إلى نتيجة واضحة ترى أن كل الإشارات التي أشاروا بها عن نبي يأتي يتميز بصفات ليست في غيره تنطبق على خاتم الرسل محمد ﷺ.

يقول البروفسور عبد الأحد (نبوءة داود تقول : قال يهوه لسيدي ، اجلس عن يميني ، إلى أن أجعل ، أعداءك مسنداً لقدميك ، فهذا النشيد الذي قاله داود مكتوب في المزمور ١١١ واقتبسه متّى ٢٢/ ٤٤ ومرقص ١٢/ ٣٦/ ولوقا ٢/ ٤٢ وفي جميع اللغات فإن الاسمين الموجودين في البيتين الأولين من النشيد

---

(١) عبد الأحد داود . محمد في الكتاب المقدس ص٨٢ ـ ٨٣ طبعة الأولى ١٩٨٥ ـ قطر .

يترجمان هكذا «قال الرب لسيدي » بالطبع فإن كلمة الرب الأولى Lond تعني الله وكلمة سيدي الثانية Lond تعني أيضاً الله .

لا ريب في أن عين دانيال المتنبئة التي شاهدت في رؤيا برناشا ـ ابن الإنسان العظيم الذي كان محمداً كانت هي نفس العين المتنبئة لداود ، كان هذا الرجل الأكثر تمجيداً وحمداً بين البشر هو الذي رآه النبي أيوب ١٩/ ٢٥ كمخلص للناس من سلطة الشيطان .

فهل كان محمد ذلك الذي قال عنه داود سيدي أو أدوني ؟

إن الحجج التي تؤيد محمداً الموصوف بأنه سيد المرسلين وهي نفس أدون أو سيد الأنبياء حجج قاطعة وهي من الوضوح كما جاءت في العهد القديم بحيث لا يسع المرء إلا أن يدهش من جهل أولئك الذين يرفضون أن يفهموا أو يذعنوا للحق .

١ ـ إن أعظم نبي وسيد (أدون) في نظر الله والناس ليس بفاتح عظيم ولا مدمر للبشرية ولا منعزل يقضي حياته في كهف أو حجرة صغيرة بتعبد لله من أجل أن يخلص نفسه فقط ، ولكنه ذلك الذي يقدم مزيداً من الخير والخدمة للبشر بأن يقربهم من ضوء المعرفة بالله الحق الأحد ، وبالقضاء المبرم على قوة الشيطان ونصُبه البغيضة ومؤسساته الشريرة . لقد كان محمد هو الذي دق رأس الحية وهذا هو السبب الذي من أجله يطلق القرآن على الشيطان اسم إبليس أي المنكسر أو المسحوق . لقد طهر محمد الكعبة وكل بلاد

العرب من الأصنام وأخرج العرب من ظلام الجهالة والوثنية إلى نور السعادة والدين والقوة ، وقد نشر ذلك النور في كافة أرجاء المعمورة وإن الأعمال والإنجازات العظيمة التي قدمها محمد في سبيل الله لا يدانيها ولا يضاهيها شيء.

إن الأنبياء والصالحين والشهداء هم جند الله الذين ـ بدون شك ـ ينتظمون تحت قيادة زعيمهم محمد ﷺ في مواجهة قوى الشيطان .

إن محمداً ليس سيداً لداود فحسب بل إنه سيد الأنبياء بلا استثناء حيث أنه طهر فلسطين وسائر الأقطار التي زارها إبراهيم من الوثنية ومن نير الدخلاء .

٢ ـ بما أن عيسى المسيح نفسه يعترف أنه لم يكن سيد داود وأن المسيح لم يكن ينحدر من نسل داود فإنه لم يبقَ سوى محمد من بين جميع الأنبياء سيداً لداود وعندما نأتي إلى المقارنة بين الثورة الدينية المحمودة التي حققها ابن إسماعيل النبيل في العالم وبين الذي حققه آلاف الأنبياء مجتمعين نخرج بنتيجة تفرض نفسها وهي أن محمداً وحده هو الذي يمكن أن يستحق لقب أدون السيد المتميز .

٣ ـ كيف عرف داود أن يهوه قال لأدون اجلس أنت عن يميني حتى أجعل أعداءك كرسياً تستريح عليه قدماك وحتى سمع داود

كلمة الله هذه ؟

إن المسيح نفسه يعطي الجواب أي أن (داود كتب هذا بالروح) أنه رأى الأدون محمداً كما رآه دانيال وكما رآه آخرون كثيرون . بالطبع هذا السر اجلس أنت عن يميني مخفي عنا ومع ذلك نستطيع أن نحزر بالتأكيد أن هذا التكريم الرسمي له مع شرف الجلوس عن يمين عرش الله وبالتالي رفعه ليس إلى منصب سيد الأنبياء فحسب بل وسيد الخلائق كلها ، قد حدث ليلة المعراج الشهيرة إلى الفردوس الأعلى .

٤ ـ إن الاعتراض الرئيسي الوحيد على رسالة محمد السماوية وتفوقه هو تنديده بتعاليم الثالوث ولكن العهد القديم لا يعرف إلهاً سوى الله ولم يجلس سيد داود على يمين إله ثلاثي ولكن على يمين إله واحد . ومن هنا فإنه لم يوجد بين الأنبياء الذين آمنوا بالله وبذلوا في سبيله شخص عظيم بهذه العظمة قدم خدمات جليلة في سبيل الله والناس كما فعل محمد عليه صلوات الله وسلامه)[(١)] .

ويقول في موضع آخر : لقد قدم محمد إلى الدنيا كتاباً مقدساً لا يبارى وقدم دين الإسلام الذي هو أكثر الأديان عقلانية وبساطةً ونفعاً وكان وسيلة لهداية الملايين والعديد من الأمم الكافرة في كافة

---

(١) عبد الأحد داود : محمد في الكتاب المقدس صفحة ١١٣ ـ ١١٤ .

أرجاء المعمورة وحوّلها كلها إلى أخوة عامة متحدة تكّون مملكة الله الحقيقية والرسمية على الأرض التي نادى بها عيسى ويوحنا المعمدان)[1] .

وتحت عنوان النبي الذي يبشر بالإسلام يقول البروفسور عبد الأحد : إن دين الإسلام أي الإسلام وحده هو القادر وحده على تحديد خصائص ووظيفة النبي الحقيقي أو الإمام أو أي قائم بأمر الله في الأرض . إن الله واحد ودينه واحد ولا يوجد دين آخر في العالم كالإسلام يتبنى ويدافع عن هذه الوحدانية المطلقة لله .

ويقول في الصفحة ١٦٣ : إنها لمعجزة فريدة حقاً في تاريخ الأديان أن يطلق اسم محمد من بين جميع أبناء آدم على نجل عبد الله وآمنة في مدينة مكة لأول مرة ولا يمكن أن تكون هناك حيلة زائفة أو محاولة ما أو تزوير ما في هذا المجال لأن والديه وأقرباءه كانوا وثنيين ولم يعلموا شيئاً مطلقاً عن التنبؤات العبرية ، وأن اختيارهم لاسم محمد أو أحمد لا يمكن تفسيره بأنه كان على سبيل المصادفة أو حدثاً عرضياً .

أما الدكتور موريس بوكاي فقد تحدث في كتابه المشهور القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم عن الرسول العربي محمد ﷺ

---

(١) عبد الأحد داود : محمد في الكتاب المقدس صفحة ١٢٢ .

فقال : يزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية في التاريخ تعيد أقوال التوراة والإنجيل مثل هذا الموقف لا يقل استخفافاً عن ذلك الذي يقود إلى القول بأن المسيح أيضاً قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم في أثناء تبشيره .

ومع ذلك فهكذا في الغرب يحكم على محمد ﷺ في أغلب الأحيان ويزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقاً في اعتباره أن القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطي عن نفس الحدث رواياتٍ مختلفة . لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات ثم يعلنون أنها متماثلة وبالتالي يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية .

ثم يقول : كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمياً ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة(١) .

ويقول فولتير : لقد نسبنا إلى القرآن كثيراً من الأباطيل ولكنه في الحقيقة براء منها فالقسُس صنفوا كتباً كثيرة في ذم المسلمين ،

---

(١) موريس بوكاي . القرآن والتوراة والإنجيل والعلم صفحة ١٤٩ ـ ١٥٠ . جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس ١٩٨٢ .

وكتب كتّابنا وهم لا يحصرهم العدّ مؤلفات واسعة ، استطاعوا بها أن يجعلوا النساء من حزبهم ذلك بأنهم نقلوا إليهن بأن محمداً يعتبرهن حيوانات ذات ذكاء وأن الشريعة الإسلامية لا تراهن إلا إماء لا يملكن من دنياهن شيئاً ولاحظّ لهن في الحياة الآخرة ، ويقرر فولتير وبديهي أن هذا الكلام باطل . إن الذين يعزون إلى القرآن أنه يخفض من مقام المرأة إنما يعزون إليه ذلك بهتاناً وكذباً[1] .

وفي مقام آخر نسمع رأي المستشرقة لورافيشيا فاغليري وهي تتحدث فيه عن الموقف الذي كان يواجه الرسول ﷺ حين الإذن بالقتال وبعد الهجرة فتقول : (كان من دأب الرسول بوصفه نبياً موحى إليه أن يخاطب المكيين ويحدثهم عن رؤاه السماوية التي طلبت إليه أن يصبر على الأذى والتي أثارت سخط قريش حتى إذا اتخذ القرار العسير بالهجرة إلى المدينة ، وبذلك أصبح محور صراع سياسي كان عليه أن يختار بين الموت على نحو مذل ، وهو أمر لا يتفق مع رغبات الله ، وبين القتال لإنقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهلاك . كان الصراع يدور بين الفوضوية ومادية الوثنيين المتبربرين ، ومخاصمات وأكاذيب اليهود غير المتسامحين ، على الرغم من تحضّرهم البعيد من ناحية ، وبين مثل

---

(١) فولتير . الهلال والصليب ص٨٩ ـ ٩٠ .

أعلى رفيع في التجدد الديني والاجتماعي من ناحية ثانية ، ذلك كان المثل الأعلى الذي أراد محمد أن يحققه بأي ثمن فقاتل قتال الرجل الوديع ضد الغطرسة والطغيان ، أو قل قتال الرجل الذي لا يرغب في الحرب ، ولكنه مكره على منازلة أولئك الذي أصرّوا على تدميره بالقوة)[1] .

ويقول توماس كارلايل في كتابه الأبطال حين الحديث عن النبي ﷺ : (إن اتّهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم ، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل سيفه ليقاتل به الناس ، أو يستجيبوا لدعوته ، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين ، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها)[2] .

وقال الأستاذ رشيد الخوري (فلا شكسبير ولا هوغو ولا تولستوي ولا غيرهم من أمثالهم يطولون مهما اشرأبت أعناقهم إلى الدرجة السفلى في تلك المنصة العالية التي يقف عليها محمد بن عبد الله وقفة سيد الأنبياء وواحدها) .

---

(١) دفاع عن الإسلام لورافيشيا فاغليري . ترجمة منير البعلبكي . دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٣ ط٢ ص٣٠ .

(٢) المستشرقون والإسلام زكريا هاشم ص٤٣ ـ ٤٤ .

وجاء في كتاب هوفمان الإسلام كبديل ما نصه في ص٢٥٠ :

(اعتنق الإسلام اقتناعاً مباشراً حوالي ثمانية آلاف ألماني وألمانية وبعضهم جذبته إلى الإسلام سماحته ورسالته .

ذكر محمد بن عبد الله ﷺ كذلك أن وحدانية الله المطلقة كانت الدافع المباشر لإسلام كثيرين فضلاً عن وضوح الإسلام والأخوة التي يشعر بها المسلم الألماني خالصة لوجه الله . . .) .

قال بودلي في كتابه محمد ﷺ :

(إني أعتقد أن محمداً عظيم العظمة الكافية) .

وقال : (أكان في مقدور رجل ، ما لم يكن ملهماً ، أن يأتي إلى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية ؟ ألا تنعكس سخرية معادي الإسلام عليهم ؟ وكيف يترك رجال عقيدة ازدهرت ونمت بعد موته ؟ . . إن عدد معتنقي الإسلام ليزداد اليوم بمقدار ربع مليون في كل عام ؟ وهذا دون ضغط أو إرهاب لنشر رسالة الإسلام)[1] .

ما ورد في إنجيل برنابا (وهو القديس الممتلئ من الروح القدس تجله الكنيسة وتعظمه) .

ورد في (٣٩ : ١٤) فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء

---

(١) ص٣٠٩ الرسول حياة محمد ر . ف بودل .

كتابة تتألق كالشمس نصها : (لا إله إلا الله ومحمد رسول الله) .

وفي الإصحاح الرابع والخمسين يتكلم عن يوم الحشر إلى أن يقول :

« ٩ ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون : (اذكرنا يا محمد) » .

وفي «٩٧ : ١٤ أجاب يسوع إن اسم حسياً عجيب» إلى أن يقول (قال الله اصبر يا محمد) . . . ١٧ إن اسمه المبارك محمد » .

وفي ١٦٣ : ٧ أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم ؟ « ٨ أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله » .

قال أحمد فارس الشدياق : (إن النبي محمد ﷺ تحدى بالقرآن فأعجز أساطين الفصحاء ، وأعيا مقاويل البلغاء ، وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان ، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان ، وفي أمة كانت مواهبها محشورة للتفوق في هذا الناحية !!

وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزاً وأفحش عياً بل : أين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان !!! . . .

وقال عنه المستشرق جب (أحمد فارس الشدياق كان أحد الأبطال العظام المدافعين عن الإسلام) .

ويقول الشاعر إلياس طعمة :

(رغم ما واجه القرآن من التحديات فإنه لا يزال واقفاً في عليائه ، يطل على الجميع من سمائه ، وهو يشع نوراً وهداية ، ويفيض عذوبة وجلالة ، ويسيل رقة وجزالة ، ويرف جدة وطلاوة ، ولا يزال كما كان غضاً طرياً يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة قائلاً في صراحة الحق وقوته ، وسلطان الإعجاز وصولته :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

وما زال يدرس الإسلام حتى قال : (إذا لم تكن عروبة إلا بالإسلام ، فإنني عربي مسلم مؤمن ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم سمى نفسه (أبا الفضل الوليد بن عبد الله بن طعمة) .

ويقول موريس بوكاي : « لكل من يشرع في دراسته (أي القرآن) بموضوعية ، وعلى ضوء العلوم طالعه الخاص ، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة بل أكثر من ذلك يكشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً

في عهد (محمد ﷺ) قد استطاع أن يؤلفها ، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن » .

يقول الكونت هنري دي كاستري :

يرد فيها على كل من قال بأن دراسته للأناجيل والتوراة هي أسس دعوته فيقول (أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث ، وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقه ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته[١] .

ثم يتابع فيقول (والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى) .

ويقول تولستوي (ذلك الأديب والكاتب الروسي الكبير) :

« لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا البيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة

---

(١) ص١٤ من كتاب محمد رسول الله ترجمة الدكتور محمود عبد الحليم .

برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام : وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال » .

ويقول آرتين دينيه في نهاية كتابه محمد رسول الله الذي قام بترجمته الدكتور عبد الحليم محمود وهو آية من آيات العرض الفكري الجاد لحقائق الرسول والرسالة قال في ص٢٨٣ (فدين الرسول محمد ﷺ قد أكد من الساعة الأولى لظهوره ، وفي حياة النبي عليه السلام ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل ، إذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر ، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ، سواء بالنظر لمذهب المعتزلة ، أو بالنظر لمذهب الصوفية يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً ، سواء في ذلك الأوربي المتحضر والزنجي الأسود من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما ، ثم يزيد عن ذلك بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأوثان » .

ومما يجب أن يعرفه القارئ أن آيتين دينيه أسلم وسمىٰ نفسه سليمان إبراهيم واشتهر باسم ناصر الدين والإسلام . وكتب رساله اسمها (أشعة خاصة بنور الإسلام) وله مؤلف هام (الشرق كما يراه الغرب) ودفن بالجزائر .

يا عرب يا مسلمون

لقد كان الرسول ﷺ الشمس الوضاءة في تاريخ العرب ، والقبس المنير في دنيا وجودها خلال عصورها المختلفة ، والبحاثة المطالع لواقع العالم قبل بعثته وبعدها يرى الآثار العظيمة لشريعته ومبادئه ولرجاله المؤمنين ، وكنتم قد قرأتم في البحث الماضي ما قيل عن الرسول والرسالة من علماء العالم الأفذاذ ما يثبت لنا عظمة الرسول في نظر الأعداء فكيف بالمنصفين العقلاء . . وإننا اليوم لنعيش في الصراع والضياع الذي كانت تعيشه الأمة قبل ظهور الرسول العظيم . فأمتنا قد مزقتها المحن ، وفرقتها المصالح ، وشردتها النكبات ، وتخبطت في أوحال المذلة والانحطاط ، فصارت وضيعة بعد عز ورفعة ، تخلفت عن ركب الحضارة على الرغم من أسبقيتها في غابر العصور . ضعف في كل ميدان من ميادين الحياة حتى استضعفها الملعونون من أقزام الرجال ، المشردون في كل بقاع العالم ، بل لضعفنا ولعدم استمساكنا بحبل النجاة ، وإن أمتنا تفكر بالنجاة والخلاص وتبحث عنه ، وإنها أمة تندب حظها ومكانتها بين الشعوب في وسط هذا الهشيم المحطم ، وخلال هذه المتاهات المميتة وقد اشتد الظلام على هذه الأمة

واحتدم الخطب حولها ؛ ولا بد لها من قارب النجاة واشراقة لفجرها ، وها قد بلغ الأمر منتهاه والفجر بيدنا والدواء الناجع بين ظهرانينا وقد جربته الأجيال الماضية فأنتجت لنا حضارة عالمية شهد لها علماء الاجتماع وخيم الفجر على ربوعنا فصارت الأمة هي الأمة العظيمة في دنيا الوجود . . .

فالفجر المطل هو كتاب الله العظيم ، والدواء الناجع هو الإسلام الحق الذي جاء به رسول الله ، والمصلح الأول والأخير لهذه الأمة هو الرسول العربي محمد ﷺ شاء المكبلون بأهوائهم وآرائهم وعاداتهم أم أَبَوْا وليس المصلح من يعيش بين ظهرانينا وإن فكر وكتب ووعظ وخطب ، ولكنه الحي في قلوب الناس بآرائه وشخصيته وعظمته وهو الذي تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا به وبصفاته وتجعل له عمراً ذهنياً يكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها وما كان محمد إلا عمراً ذهنياً محضاً في تاريخ أمتنا العربية والإسلامية تمر به آيات ومعاني القرآن لتظهر للناس سلوكاً مجسداً رائعاً وإن لم يكن محمد ﷺ هو صاحب هذه الأفكار والمجسد لها ؛ فمن يا ترى في العالم يستطيع تجسيد المعاني العظيمة إذن . . وإن لم يكن محمد ﷺ هو المصلح الأول والأخير للأمة العربية ، فمن هو المصلح إذن . . وإذا لم يكن محمد هو الرسول والنبي والمصلح فما هو دوره في العالم ، ولماذا اهتم به العلماء والحكماء ودرسوا حياته بملايين المجلدات ، وما هي

الأسباب التي دعت علماء التاريخ والاجتماع والفلسفة لدراسة تشريعه ومبادئه العظيمة .

محمدكم يا عرب به نجاة أمتكم . .

وهو النبراس الخالد للإنسانية الضائعة ، وهو الذي غير مجرى تاريخ الإنسانية لصالحكم ، فما بالكم قد تنكبتم طريقه ، وسرتم في طريق لا تصلون به إلا إلى ضياعكم . . ؟

فلو لم يكن محمد ﷺ في تاريخ العرب فما هو تاريخهم وماذا يحتوي . .

فلو كان فرنسياً لمجدوه ولعظموه ولساروا على نهجه ، ولو كان بريطانياً لأقاموا لتعاليمه الجامعات ولجعلوا قانونه هو القانون العالمي . .

فاسمعوا قول النبي العربي العظيم جواباً لسؤال قيل له : إن أمتك ستفتن من بعدك فما المخرج من ذلك فقال : « كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله ؛ ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم ، فيه خبر من قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل وهو الذي سمعته الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عَجباً يهدي إلى الرشد . فآمنا به ، ولا يَخلَق على طول الرد

ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه . . » .

وإذا لم يكن محمد ﷺ هو القدوة والنبراس فمن من أمة العرب يستحق أن يكون المثل الذي يحتذى به في مسيرة البشرية الطويلة . . ؟

من القدوة والمثل في عالمنا وفي أمتنا في الإنسانية . . ؟

من هو الشعلة الأخلاقية المجسدة ، من يا ترى هل رجال الفلسفة . . ؟

هل رجال المادة . . هل التائهون في أنانيتهم . . ؟

هل رجال الحرب والدمار . . من هم قدوة العالم . . ؟ هل تجار الشعوب . . ؟ فمن يا ترى . . ؟ أقول ويقول معي كل منصف من الحكماء والعلماء والفلاسفة إنه محمد ﷺ هو الرسول والقدوة والمصلح .

أيها الإنسان الصامت عن اتخاذ قدوة لك في حياتك ، أيها الإنسان الذي يعيش على مبدأ اللامبالاة في حياته . . اجعل الرسول قدوتك . . لتظفر بهدوء النفس من قلقها المميت . .

أيها الإنسان الذي جعل قدوته فيلسوفاً أو عالماً . . وازن بين شخصية الرسول العظيم وبين هؤلاء الذين جعلتهم قدوتك . .

إنه الرجل العظيم في أخلاقه ومبادئه وإنسانيته وتشريعاته إنه

الرجل الذي لا مثيل له في العالم بإقرار العظماء الذين يعرفون أندادهم بل نقول بصراحة وصدق : لا ند للرسول في عالم البشر . .

وأنتم يا مسلمون . . أعيدوا للعالم صفات الرسول المجسدة في سلوككم واعرفوا حقيقة نبيكم لتعودوا إلى العزة والرفعة ﴿ لله العـزة ولـرسـولـه وللمـؤمنيـن ﴾ أجيبـوا داعـي الله . . لبـوا نـداء القرآن . . كونوا نسخة حية لكتاب الله . . فإنه لا نجاة إلا به ؛ وبدراسة الواقع وتطابقه مع المجتمع المسلم الأول . . ولنقرأ ما قاله (ليكونت دي نوي) في كتابه مصير البشرية، قال: لا خلاص للنوع البشري إلا بالعقيدة الصحيحة القوية الحية بمثلها العليا ، العارفة بتقدم العلم ، الخالية من التحامل على الذكاء . .

وقال عالم أوربي آخر : كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ . . وما أروع أن نقرأ قول الله تعالى : في دعوته لنا :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ .

وقال الرسول ﷺ في خطبة له : وهي من أروع ما قال في أسلوب بليغ وفكر جامع يدل على شخصية فذة واطلاع ثابت ،

وحكمة بالغة فقال : « إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإِسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث » .

الخاتمة

وإنني بعد هذا البحث الذي توصلت فيه إلى اليقين الدال عليه من البراهين العلمية والاستدلالات العقلية بأن هذا الإسلام العظيم بمبادئه السامية وأخلاقه الرفعية ، ودعوته الصادقه ، ووحدانيته المتفردة ، وأحكامه التشريعية الخالدة ، وإنسانيته الشاملة ، وحضارته المادية والروحية المتوازنة ، كل هذا ليدلنا دلالة واضحة على صدق نبوة محمد ﷺ وما عبقريته إلا ظل من ظلال الرسالة التي اصطفاه الله لحملها وأدائها .

وإن القرآن العظيم كتاب الله الناسخ لجميع الكتب السماوية السابقة وهو الذي تكفل الله بحفظه ما دامت السموت والأرض ليبقى النبراس المضيء للبشرية في تحقيق سعادتها في الدنيا والآخرة .

وكل الدعوات الصادرة عن أقلام معاصرة لتحجيم دور الإسلام في المشاركة الفاعلة في حضارة المجتمع المعاصر ما هي إلا فقاعات تذوب بمرور الهواء عليها ليحطم فراغها ، وليبدد مقولاتها ، وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيبقى خالداً مخلداً .

والتشكيك في مكانة محمد ﷺ قديماً وحديثاً ما هو إلا سهم مسموم في صدر هذه الأمة ، ولا بد لنا في عجالة أن نفيَ دور النبوة وأهميتها في إيضاح مجمل القرآن ، وتفسيره ، وتبيان غامضه ، وتقييد مطلقه ، وتفصيل مجمله فهو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي قال الله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ وقال جل ثناؤه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فسنته لها مكانتها الكبيرة في إسلامنا العظيم ، منها نأخذ الأحكام المفصلة التي أجملها القرآن الكريم فهي ملزمة في حال الإلزام ، ومستحبة في حال الاستحباب ، وللإباحة في حالة الاختيار ، إن كانت صحيحة قطعية الثبوت والدلالة .

ولا بد لأمتنا اليوم من عودة رائدة في وعي ثقافي مدروس لإعادة النظر في دراسة السيرة النبوية لمراحل شبابنا كل حسب طاقته ليبقى القدوة والأسوة في مسيرتنا المعاصرة .

فرسول الله ﷺ هو نبي هذه الأمة ، وهو الذي أوجد كيانها ، ووحد طاقتها ، وجمع كلمتها وما زالت سيرته ورسالته هما القادران لإعادة مجد هذه الأمة إن اتخذت القرآن الكريم دستوراً لها والسنة مسلكاً ومنهجاً في وجدانها والشريعة الغراء محكمة في حياتها وها نحن نجد تدهور الحضارات المادية الفارغة من الفطرة في المعسكر الماركسي والرأسمالي لعدم توازن المادة والروح في وجدان الإنسان الذي لا يمكن أن يعيش إلا بجسد وروح .

المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ تفسير المراغي .

٣ ـ نفسية الرسول ﷺ . لبيب الرياشي .

٤ ـ سيرة ابن هشام .

٥ ـ الأبطال . توماس كارليل دار الكتاب العربي .

٦ ـ فلسفة تاريخ محمد ﷺ . محمد جميل بيهم .

٧ ـ سيدنا محمد رسول الله ﷺ . عبد الله سراج الدين .

٨ ـ الرسول (حياة محمد ﷺ) . ر.ف بودلي .

٩ ـ نبوة محمد من الشك إلى اليقين . الدكتور فاضل السامرائي .

١٠ ـ إظهار الحق . لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي مطبعة الرسالة .

١١ ـ أعلام النبوة . للماوردي .

١٢ ـ إنجيل برنابا .

١٣ ـ تثبيت دلائل النبوة . لقاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني .

١٤ ـ دلائل النبوة . لأبي نعيم الأصبهاني .

١٥ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد . لابن القيم الجوزية .

١٦ ـ صحيح البخاري .
١٧ ـ صحيح مسلم .
١٨ ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين . لمصطفى صبري شيخ الإسلام .
١٩ ـ الوحي المحمدي . لمحمد رشيد رضا .
٢٠ ـ مطلع النور . عباس محمود العقاد .
٢١ ـ عبقرية محمد ﷺ . عباس محمود العقاد .
٢٢ ـ محمد والقرآن . كاظم الشيخ سليمان آل نوح .
٢٣ ـ حاضر العالم الإسلامي . شكيب أرسلان .
٢٤ ـ محمد المثل الكامل . أحمد جاد المولى .
٢٥ ـ الإسلام كبديل . د. مراد هوفمان (سفير ألمانيا بالرباط) .
٢٦ ـ محمد رسول الله . د. عبد الحليم محمود .
٢٧ ـ أنا والإسلام. الدكتور نظمي لوقا .
٢٨ ـ خاتم النبيين . لأبي زهرة .
٢٩ ـ صورة من حياة الرسول . أمين دويدار .
٣٠ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . عباس محمود العقاد .
٣١ ـ محمد ﷺ رشيد رضا . مكتبة القدس بغداد .
٣٢ ـ دراسة في السيرة النبوية . للدكتور عماد الدين خليل .
٣٣ ـ السيرة النبوية . لأبي الحسن الندوي .
٣٥ ـ حياة محمد ﷺ . محمد حسين هيكل .

٣٦ ـ قبسات من حياة الرسول . الشيخ محمد أحمد عساف .
٣٨ ـ مصير البشرية . ليكونت دي نوي .
٣٩ ـ الله يتجلى في عصر العلم .
٤٠ ـ إعجاز القرآن . للباقلاني .
٤١ ـ تاريخ الأدب العربي . مصطفى صادق الرافعي .
٤٢ ـ هل الله موجود ؟ مجموعة من الباحثين .
٤٣ ـ وامحمداه . الدكتور نظمي لوقا .
٤٤ ـ العلم يدعو للإيمان . كريسي موريسون .
٤٥ ـ الإسلام والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل .
٤٦ ـ القرآن والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل .
٤٧ ـ ما يقال عن الإسلام . عباس محمود العقاد .
٤٨ ـ العلم وأنشتين .
٤٩ ـ كتاب الشمس . الدكتور جورج جامون .
٥٠ ـ مع الله في السماء . الدكتور أحمد زكي .
٥١ ـ بناء الإنسانية . بريفولت .
٥٢ ـ الدفاع غن الإسلام . لورافيشيا فاغليري .
٥٣ ـ العقيدة والمعرفة . زيغريد هونكه .
٥٤ ـ المنازعة بين العلم والدين . دريبر .
٥٥ ـ تاريخ العرب . سيدلوت .
٥٦ ـ حضارة العرب . كوستاف لوبون .

٥٧ ـ شمس العرب تسطع على الغرب . زيغريد هونكه .
٥٨ ـ حياة محمد . وليم موير .
٥٩ ـ العواطف كأساس للحضارة . ج . هـ . دينسون .
٦٠ ـ روح المدينة . للغلاييني .
٦١ ـ الإسلام على مفترق الطرق . ليوبولدفايس (محمد أسد) .
٦٢ ـ حياة محمد . واشنجتون أرفنح .
٦٣ ـ الإسلام يتحدى . محمد خان .

الفهرس

الموضوع	الصفحة